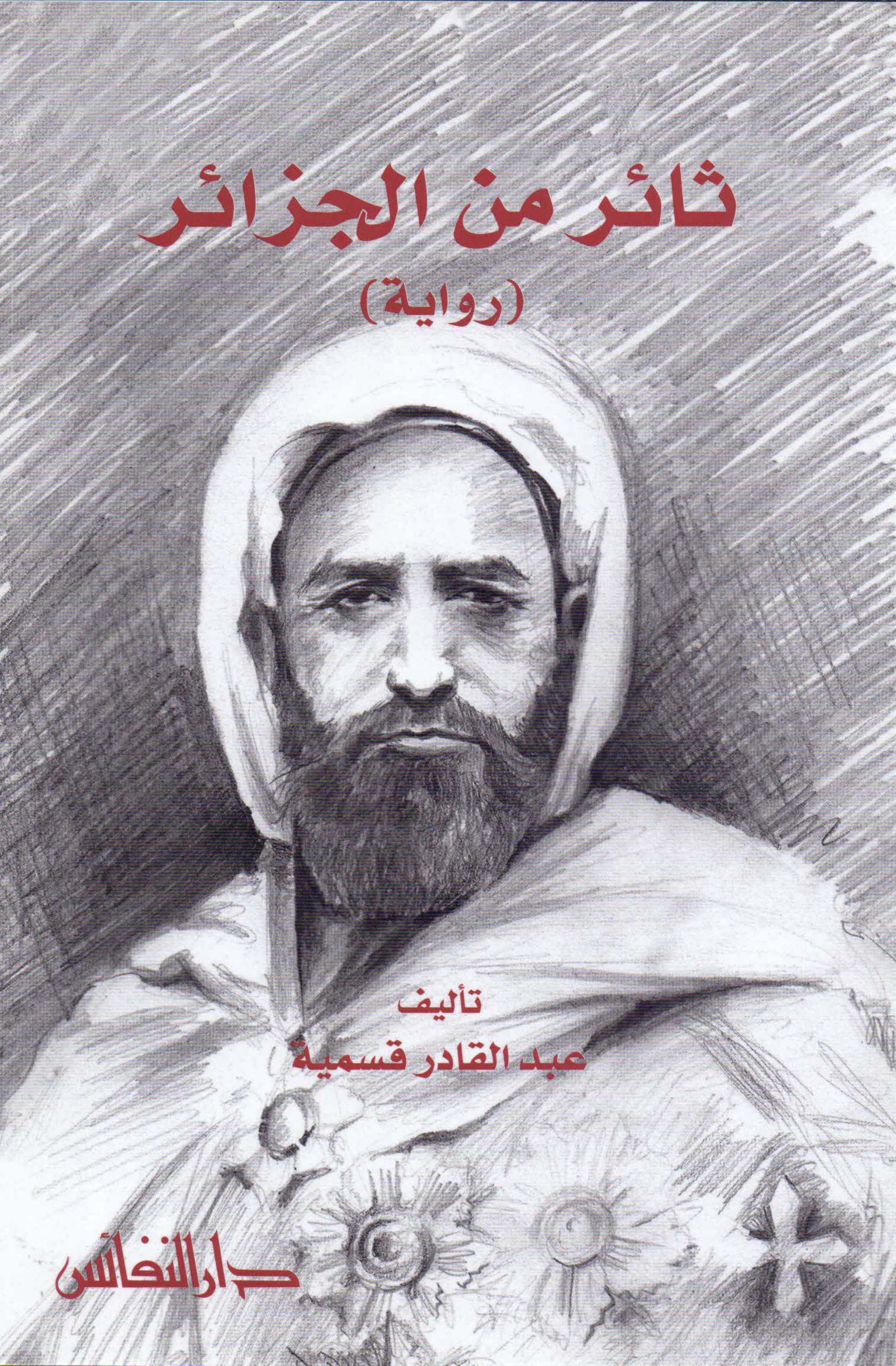


ثائر من الجزائر
(رواية)
تأليف
عبد القادر قسمية
دار النفائس



يرسم المؤلف في هذه الرواية، بطريقة حواريَّة جذَّابة، مرحلة واقعية من تاريخ الجزائر، تجعل القارىء يعيش مع شخصيّات الرواية، أبطال ثورة الجزائر، التي امتدت عشرات السنين، والتي كان عبد القادر الجزائري، موقِدها ومحرِّكها، وشكَّل منارة لمن عاصره، ولمن تبعه وسار على نهجه، حتى حققت الجزائر استقلالها.

ومعظم شخصيّات هذه الرواية التاريخية، هم شخصيّات حقيقيَّة، وكذلك المناطق الواردة أسماؤها فيها. وقد كُتبت بالطريقة التي تلفظ فيها في تلك المناطق بإطار فنيٍّ يضفي على الحوار جاذبيَّة متميِّزة، ويعطي الرواية نكهة جمالية، قد لا نجدها في مثيلاتها من الروايات التاريخية.

الناشر


ISBN 978-9953-18-544-6

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسومات بريشة الأستاذ: عامر قادم



ثائر من الجزائر

(رواية)

ثائر من الجزائر

(رواية)



تأليف

عبد القادر قسمية

دار النفائس

ثائر من الجزائر (رواية)

تأليف: عبد القادر قسمية

الطبعة الأولى: 1436هـ ـ 2015م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 544 - 6



Publisher



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14

الرمز البريدي: 2020 ـ 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 ـ 009611810194

بيروت ـ لبنان



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@yahoo.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

مقدمة

«لم تتوقف آلة الاستعمار الفرنسي عن القتل طيلة 132 سنة من احتلال الجزائر (1830 ـ 1962م) فاستُشهد الملايين من الجزائريين ورحلت أرواحهم إلى بارئها... لكن بأرواحهم بقي الوطن الجزائري... ولم يرحل».

لعل ما يميِّز كل زمان ومكان هي تلك الأرواح التي تسمو على بقية الخلق رفعة وتقديراً فتترك آثاراً خالدة، ظاهرها الدنيوي يعترف به العدو قبل الصديق، وباطنها متصل بالسماء إلى يوم الدين.

سيرة الأمير عبد القادر الجزائري عُملة نادرة وحمّالة أوجه مُشَرِّفة، فقد أُعطي السماحة والحكمة والفصاحة وقواعد العلم، وفُضِّل بشرف النسب الذي يمتد إلى النبي الأكرم ﷺ، وعُرف بحسن التدبير والشجاعة والإقدام في ميدان الحرب، فكان رمز الجزائر والعرب وكل من يناضل لرفع الظلم والاستبداد في وجه المستعمر الذي لا تتغير أطماعه وأهدافه... مهما طال الزمان أو قصر.

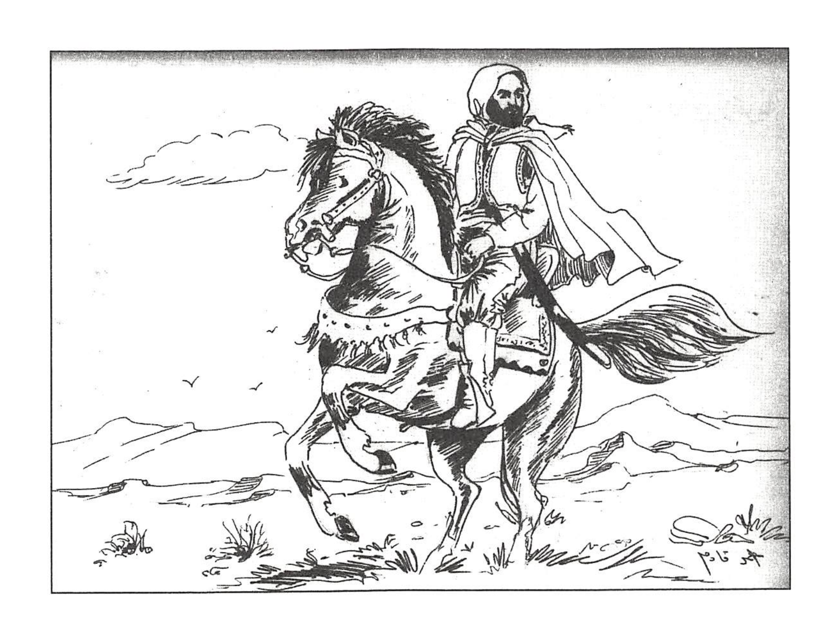
إن هذا الإصدار هو تكريم للأبطال... فهو يرسم بطريقة حوارية مرحلة واقعية تجعل القارئ يغادر الزمان والمكان، ضمن قالب روائي قصصي يحاكي مرحلة من مراحل النضال الطويلة في الجزائر، والتي كان الأمير عبد القادر الجزائري رفقة من عاصروه من

أهله وخاصته في تلك البيئة الدينية البدوية أحد أبطالها، فامتد العطاء لأكثر من نصف قرن.

وأغلب الشخصيات والمناطق الموجودة في هذه الرواية التاريخية هي شخصيات حقيقية وقد كُتبت بالطريقة التي تُلفظ بها في تلك المناطق... ضمن إطار فني.

والمقاطع التاريخية في الرواية لربط الأحداث بعضها ببعض، وهي بمثابة الراوي للوقائع بإيقاع خاص، يضفي جمالية على تناغم الوقائع وتسلسلها، وما كتب بخط مائل فهو لتصوير الأماكن والأحداث، أما عن الرسومات فهي تلك التعبيرات الحسيَّة بأنامل صاحبها العفوية والبسيطة وُجدت لمزج روح تكميلية أخرى من الفن...

عبد القادر قسمية



«أيا عبد القادر كنت القديرا

وكان النضال طويلاً عسيرا

شرَعت الجهاد فلبّاك شعبٌ

ونجّاك ربٌّ فكان النصيرا

ونظَّمت جيشاً وسُسْت بلاداً

فكنت الأمير الخبير الخطيرا

وألــهــبــت فــي الــقــابــعــيــن الــحــنــايــا

وأيــقــظــت فــي الــخــانــعــيــن الــضــمــيــرا

أيا عبد القادر كنت القديرا. . . . .»

الشاعر مفدي زكريا[1]

(1) مفدي زكريا (1908 ـ 1977م) شاعر الثورة الجزائرية ومؤلف النشيد الوطني الجزائري.

وقائع[1]

يقول المؤرخ كريستيان في كتابه «إفريقيا الفرنسية»

«تلقّى الجند أمراً من القائد العام الجنرال روفيقو، بالخروج من مدينة الجزائر ليلة 16 ابريل 1832م، ففاجأ «قبيلة العوفية» عند الفجر وهي نائمة، وأمعن في ذبح أولئك الذين لم يستطع أي واحد منهم الدفاع عن نفسه، وهكذا وقع القتل على كل نفس حية في القبيلة دون أي تمييز، وكان الجنود الفرنسيون يحملون الرؤوس على أسنَّة رماحهم».

الجنرال شانقارنيي يصرِّح..

«لقد كان التسلية الوحيدة التي أستطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشتاء، هي السماح بغزو القبائل المعادية في الجزائر، أما الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الدانمارك، وبقية الغنائم الصامتة فقد عُرضت للبيع في سوق باب عزون، وكان من الغنائم أساور النساء وهي لا تزال في أيديهم المقطوعة، وأقراط نساء لا تزال تلتصق بها قطع من آذانهن».

قائد المشاة الفرنسي سانت أرنو...

«لقد كنت أستطيع مع جنودي اقتفاء أثر القائد العام دون أن

---

(1) وقائع: أقوال مقتبسة من آثار الأستاذ أحمد توفيق المدني: «هذه الجزائر».

أضلَّ الطريق، لأني كنت أسير على ضوء الحرائق التي يوقدها قبلي في القرى والمداشر والدواوير التي يمر بها. . .

. . . في حريق الكهف الذي أوت إليه قبيلة بكاملها في منطقة الظهرة سنة 1845م وضعنا على مداخله أكواماً من الحطب والقش وأوقدنا النار، واستمر اللهيب طيلة ليلة كاملة، فجاء الصباح ودخل الجند إلى الكهف، حتى كانت الجثث مفحَّمة ممزقة الأشلاء تحت ألسنة اللهب وأقدام الثيران والحيوانات التي دفعتها غريزتها نحو مخرج الكهف لكن دون جدوى. . . فلقيت هي أيضاً حتفها. . . ومن المشاهد التي أذكر، رجل ميت وهو ممسك بقرن أحد الثيران دفاعاً عن امرأته وصبيِّه، فماتوا جميعاً على هذا الوضع».

القسم الأول

السيرة التعليمية في الأمصار العربية

بدأ الشتاء مبكراً هذه السنة والبرودة الشديدة امتدت إلى أشهر الربيع . . . الصحة لم تعد كسابق عهدها ، والكل انتبه لشدة السُّعال أثناء الدرس، يتوقف قليلاً ثم يُكمل . . الرجل تجاوز السبعين من العُمر ، فلم يدَّخر جُهداً طيلة حياته . . ولا يزال صامداً . . لعل أخر أوراق شهر أيار/مايو ستودِّع أعظم رجالتها .

دمشق بيت الأمير عبد القادر 1883م (لآلة خيرة زوجة الأمير عبد القادر) .

الأمير عبد القادر . . بنبرة المريض : يا أبنائي ويا أهلي . . . لقد رافقني الآن أحد التلامذة بعد إتمام الدرس والصلاة وأوصلني إلى البيت، ولولاه ما كنت قد استطعت ذلك .

لآلة[1] **خيرة**: عليك أن ترتاح قليلاً يا حاج .

الأمير عبد القادر . . وهو يسعل : سأفعل . . . سأفعل ذلك .

لآلة خيرة: سوف أُعدُّ لك الدواء الطبيعي الساخن بعد أن ترتاح .

الأمير عبد القادر: أشكرك يا خيرة . . . أريد أن أبقى بمفردي بعض الوقت .

❊ ❊ ❊

(1) لآلة : مصطلح شعبي يضاف لاسم المرأة يقصد به الاحترام ورفعة القدر .

عمَّ الذعر قلوب الأبناء والأصحاب، فلم يعهد أحد أن يرى الأمير يمشي متثاقلاً إلى غرفته التي تحوي كتبه..

جلس الأمير كعادته وساقه اليسرى مطوية تحته وهو يحرك حبات المسبحة.. وبعد أن أتم الدعاء وضع راحة يديه على وجهه ماسحاً ومُتذكراً ما مضى من السنين والأيام.

الجزائر... مكتب الحاكم العثماني لمدينة وهران الباي حسن 1825م.

البكباشي[1] يدق الباب.

الباي حسن: نعم، تفضل بالدخول.

البكباشي: عمت صباحاً مولاي الحاكم.

الباي حسن: ما الأمر؟

البكباشي: هنالك شيء مهم أريد أن أبلغك إياه؟

الباي حسن: تكلم ما وراءك؟

البكباشي: سيدي لقد وردني أن الشيخ مُحي الدين غادر البلاد منذ أيام متوجهاً لأداء مناسك الحج.

الباي حسن: غادر ومنذ أيام، عظيم هذا الأمر؛ وأين كانت أعينكم كل هذه الفترة، ألم أُجبره على الإقامة في بيته، وأن لا يتحرك إلا بإذن مني؟!

البكباشي: و لكن...

الباي حسن: ولكن ماذا؟! بعدما حاول مُحي الدين تأليب الأهالي علينا يُطلق له العنان الآن... وما بال الحراسة التي كانت تراقبه؟

---

(1) البكباشي: رتبة عسكرية إبان السلطة العثمانية.

البكباشي.. مقاطعاً: سيدي علمت الحراسة أن داي الجزائر هو من سمح بخروجه للتعبد، فلا يُشترط إيقافه وقد أبلغهم بذلك، وأبلغهم أيضاً أن الداي لم يمنعه يوماً كما أُخبرته سيدي... ويقال إن الأهالي اجتمعت كلها في مأدبة كبيرة لتوديعه.

الباي حسن: اللعنة..... لقد كشف أمري، لقد سلب تفكيرهم محي الدين هذا وأصبح بطلاً في نظرهم يأتمرون بأمره، ويتبعون مشورته في كل أمورهم.

البكباشي: وأيضاً...

الباي حسن: ماذا هنالك أيضاً؟

البكباشي: لقد غادر رفقة ابنه عبد القادر بعد أن طلب منه الكثيرون السفر معه.. فاختار ابنه لمرافقته.

الباي حسن.. غاضباً: جميل.. لماذا لا تقول هذا الخبر الجليل دفعة واحدة، تأتي به متأخراً وتجزِّئه... تقول غادر رفقة ابنه عبد القادر... عبد القادر مرافقه الدائم والحريص عليه، أمر رائع.. سفر طويل مع والده يُجهزه للانقلاب علينا مرة أخرى... آمَل أن لا يعودا أبداً وينقضي أمرهما هنالك.

رحلة الحج من الجزائر إلى أرض الحجاز

بعد أشهر. . . . . في مكة المكرمة 1825م.

الابن عبد القادر في رحلة الحج مع والده الحاج محي الدين.

أصوات الحجاج والمصلين. . .

الحاج محي الدين: لك الحمد حمد الشاكرين، ولك الشكر شكر الحامدين، أحمدك يا رب الذي أعنتنا على أداء فريضة هذا العام. .

عبد القادر: فعلاً يا أبي أدامها الله نعمة ورزقنا العافية دوماً، حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً.

الحاج محي الدين: بارك الله فيك يا بني، ولك أنت أيضاً؛ والله إنها نعمة كبيرة وشرف لا يُضاهيه شرف، فلقد أصبحت الآن حاجاً يا ولدي عبد القادر، وهذه مسؤولية أخرى، وإني والله كنت حريصاً أشد الحرص أن تحظى بهذا اللقب ويناديك به الناس.

عبد القادر: الشكر لك موصول، فلقد اصطحبتني معك دون إخوتي وكل من طلب صُحبتك. . .

الحاج محي الدين: لطالما تمنيت هذه الزيارة وأن تكون برفقتي فيها. . للسفر مآرب أخرى يا بني.

عبد القادر: حياك الله وأدامك. . يا حاج بعد أن أتممنا كل المناسك يجب علينا الآن أن نقوم بأمر مهم ونسعى لتأديته.

الحاج محي الدين: أمر مهم؟ عن أي أمر تتكلم يا عبد القادر؟ ذكِّرني؛ فلربما نسيت، فلقد أرهقني المسير قليلاً.

عبد القادر: لا.. لا يا أبي لم تنسَ شيئاً، بل أنت من كنت تذكِّرني وتعلِّمني طوال الوقت، ولكنه أمر روحي أشعر به الآن وأود أن تشاركني إياه.

الحاج محي الدين: لقد ازددتُ شوقاً لمعرفة الأمر.

عبد القادر: نحن نختص عن كثير من الناس بميزة خاصة.. نحن الآن في رحاب هذه الأرض الطاهرة، أليس كذلك؟

الحاج محي الدين: بلى يا بني أحسنت الحديث، أتمم.. ما الذي يجول بخاطرك؟

عبد القادر: أبي إن نسبي منك ومن والدتي يمتد إلى بيت النبوة إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الحاج محي الدين: صلى الله عليه وآله وسلم، نعم يا بني، من الخيرة والعترة الهادية، وسليل النبي من الجانبين، ولكن لم تفصح إلى الآن ما بداخلك؟

عبد القادر: أقصد بالحديث نحن الآن أقرب إلى الأرض التي احتوت النبوة، دعنا نبتهل من هنا إلى رب العالمين كي يُزيح الغم والهم والأعداء عن وطننا الجزائر، فالأهالي كما تعلم يا حاج يشتكون جور وظلم المخزن[1] وبعض الحكام.. وكثيراً ما رأيت هذا الجور أثناء سفري للدراسة في وهران، وقد قلَّدنا الأهالي الدعاء.

---

(1) المخزن: قبائل تتمتع بامتيازات وموكلة بجمع الضرائب من عموم الناس، وهي همزة وصل بين السلطة والناس.

عبد القادر أثناء أداء مناسك الحج رفقة والده الحاج محي الدين

الحاج محي الدين: فعلاً.. والله يزداد إعجابي بك يوماً بعد يوم يا بني، بوركت بما قلت، فالدفاع عن الحق ورفع الظلم واجب بكل الطرق، وكيف إذا كان الأمر يتعلق بوطنك.. علينا الدعاء الآن وأن نسأله ﷻ نعمة دائمة تفيض بها خيراته على البلاد والعباد.

* * *

الأهل في الجزائر...

قرية قيطنة[1] «سهل غريس» الغرب الجزائري «بيت الحاج محي الدين»، «الحاجة الزُهرا» أم عبد القادر.

الحاجة الزُهرا... بعد إتمام الصلاة: يا رب أدعوك بكل اسم سميت به نفسك أن تحفظ زوجي محي الدين وولدي عبد القادر من كل سوء، وترجعهما سالمين غانمين من أرضك الطهور..

دق الباب لأكثر من مرة ويشتد طرق الباب. والحاجة الزُهرا تقوم وهي تردد: تمهل.. من الطارق؟ أنا قادمة... تمهل، عجباً لأمرك... خيراً يا رب.

من وراء الباب:.... من أنت؟ من الطارق؟

الغلام «بوعلام»: عفواً يا حاجة أنا بوعلام سيدتي، أعمل عند الشيخ بوطالب وهو يريد أن يقول لك..

الحاجة الزُهرا مقاطعة بتلهف: هل من أخبار عن أخيه محي الدين وعبد القادر؟ تكلم...

بوعلام: لا لا يا سيدتي، جئت في أمر آخر.. يسألك الشيخ بوطالب أن يتولى توزيع المال والطعام وأضاحي العيد على الفقراء والمحتاجين نيابة عن أخيه محي الدين.

---

(1) قرية قيطنة: مسقط رأس الأمير عبد القادر، تقع في الشمال الغربي للجزائر في سهل غريس، ولاية معسكر.

الحاجة الزُهرا: قل له لك ذلك.. فلا يجب أن نتأخر عن سبيل الخير الذي كان يحرص محي الدين عليه، ولا تنسَ أن تنقل لي أي أخبار إذا ما وصل الحجاج.

بوعلام: سيكون ذلك إن شاء الله، السلام عليك يا حاجة.

* * *

بجوار الكعبة المشرفة...

الحاج محي الدين يتأمل في الكعبة...: تمنيت دوماً يا بني عبد القادر أن أقضي ما تبقَّى من عمري بجوار هذا المكان الطاهر، أتعبد وأسمو بروحي في هذا الفضاء حتى ألقى ربي في أحسن صورة.

عبد القادر: هي أمنية كل حاج يا أبي، أطال الله بعمرك وأعادك إلى الأهل والأحبة... هنالك في وطننا الكل ينتظر عودتك يا حاج، فالكل كان يوصي أن لا نُطيل السفر، فأنت الموجِّه والمعلِّم.

الحاج محي الدين: إن شاء الله... السفر نعمة من نعم الله تعالى، هي كتاب مفتوح وسوف تدرك ذلك.. أما الشوق إلى الأرض والوطن ضرورة وواجب، فهي العرض الذي نذود عنه والأصل والمنبت الذي نأتي منه ونعود إليه، حمى الله الجزائر من كل متربص، وأبعد عنها كل كائد يزرع الفرقة والشقاق... هيا بنا يا ولدي نتابع حلقات الذكر والمعرفة في هذه المدينة.

الحاج محي الدين رفقة ابنه عبد القادر يتجولان في الأسواق ويتحدثان...

الحاج محي الدين: سبحان الله، هذه الأرض تجمع الناس من كل فج عميق ومن كل الأجناس جاؤوا لهدف واحد.

عبد القادر: نعم يا أبي، لا فرق بين أحد هنا إلا ما وقر في القلب، إنها أيام مباركة، فهذا المكان هو منبع الخير الذي تتدفق منه أنهار قيم الدين وأخلاقه.. أدعو الله أن يثبِّتنا ويثبِّت كل زائر نحو سُبل الخير إلى أن يلقى ربه.

الحاج محي الدين: أحسنت، كم أفتخر بك يا بني وبسحر حديثك.. مذ كنت صغيراً لا يتوقف لسانك وترجمان عقلك عن السؤال قصد المعرفة.. تبهرني في كل مرة، فكلامك إلى القلب مباشرة.. لقد سُررت أيّما سرور عندما رأيتك تشارك في كل حلقة من حلقات الدين والمعرفة التي نزورها وتُناقش الناس وتُعرِّفهم سماحة هذا الدين ويُسره ورُقيه، وكيف أنه منارة تنير العقول والقلوب ضد الجهل والظَّلَمة المفسدين، لقد أصبحت فتىً يافعاً ويزداد اطلاعك على العلم والدين والأدب يوماً بعد يوم، أسأل الله لك الحفظ والسلامة.

عبد القادر: أكرمك الله بنعمه التي لا تُحصى يا أبي، فما أخذتُ العلم إلا منك ومن الذين تتلمذوا على يدك في قريتنا، وسفري إلى وهران للدراسة ساعدني أيضاً ووسَّع من مداركي، وشاهدت أقواماً وأجناساً مختلفة هنالك، لك مني كل الثناء والشكر، فرعايتكم واهتمامكم كانت السبب في ذلك؛ والله تتفتح عطر الأذكار بمرافقتك، وتحلو الأيام كل صباح بكلامك.. روحي لك الفداء والدي الحبيب.

الحاج محي الدين: أهه.. ها أنت الآن تمتطي الشعر وتتحدث بلسان الشاعر، وفِّقت يا بني في جميع دروب الحياة... ماذا تقول وأنت تجول في سحر هذا المكان، هيا أسمعنا ما تجود به دائماً.

عبد القادر: هه يا حاج.. لا يحضرني شيء الآن، ولكن أقول ما صغته البارحة في فؤادي...

مكّة ذي خير البلاد فديتها   فما طاوَلتها الشمس يوماً ولا النسر

الحاج محي الدين: البركة في القليل، جميل جداً يا بني.. فكلامك موزون، وفي الأمثال الشعبية نقول: «لا تسرج حتى تلجم، واعقد عقدة صحيحة، ولا تكلم حتى تخمم؛ لا تعود عليك فضيحة»[1].

عبد القادر: كم هو رائع هذا القول.

الحاج محي الدين: نعم أريدك دائماً هكذا تزن الكلام قبل أن تلفظ به، فيكون لك شأن عظيم أمام من يسمعك من الناس، سواء كانوا محبين أو مبغضين، وأن تجعل صدرك رحباً يسع كل الناس، فالدنيا طويلة ومليئة بالأخيار والأشرار.

عبد القادر: والله يا أبي قد أعانني في امتطاء الفرس والشعر معاً هو ذلك السائس[٢] الذي علّمني مُجاراة الخيل عند امتطائه وزرع حب الشعر وعذب الكلام في فؤادي.

الحاج محي الدين: نعم... لقد كان الحاج محمد رجلاً كريماً وفارساً عليماً بخبايا البوادي والقبائل، رحمه الله تعالى...

ولكن هل تتذكر ما حدث عندما غبت أنت وأقرانك برفقته لمدة ثلاثة أيام، وكانت والدتك تنتظرك بقلق شديد.

عبد القادر: هاه.. أتذكر جيداً ما حدث، وأحب أن أسمعها منك مرة أخرى يا حاج.

الحاج محي الدين: مسيرنا طويل يا عبد القادر، سوف أحكي

---

(1) تخمم: أي تفكر، والمثل الشعبي يُشبّه وضع السرج واللجام للحصان مثل التفكير والكلام الذي يقتضي الدقة والانتباه.

(2) السائس: هو رائض الدواب ومدرِّبها، وهو عليم بخباياها وأسرارها.

لك ما جرى، لكن دعنا الآن نستريح قليلاً ثم بعد ذلك نعبر مدينة رسول الله عليه أزكى الصلاة.

عبد القادر: عليه الصلاة والسلام.

الحاج محي الدين: وبعدها نتَّجه إلى مدينة العلم بغداد، ونزور هنالك.. عزيزاً ومُرشداً... أشتاق إليه كل لحظة وحين.

* * *

الجزائر، قرية قيطنة «سهل غريس»، الغرب الجزائري.

الشيخ بوطالب شقيق الحاج محي الدين/لآلة خيرة بنت الشيخ بوطالب وزوجة عبد القادر.

الشيخ بوطالب يدق الباب: يا أم عبد القادر، يا حاجة زُهرا.. أين هم؟ ما بالهم لا يسمعون؟.. بنيتي خيرة، هل من مجيب؟

لآلة خيرة تفتح الباب ومن خلفها أم عبد القادر.

الشيخ بوطالب: السلام عليكما، أهلاً بنيتي.

لآلة خيرة: عفواً.. أهلاً بك أبي.

الشيخ بوطالب: كيف حالك يا حاجة زُهرا؟ كل عام وأنتم بخير وعيدكم مبارك.

الحاجة الزُهرا: وأنت بألف خير، تقبَّل الله أعمالك يا شيخ بوطالب.

الشيخ بوطالب: أشكرك يا أم عبد القادر، كيف هي أحوالك؟ بنيتي خيرة يجب أن تسهري على راحة أم عبد القادر، فإن كانت تتعبك يا حاجة سوف ينالها مني العقاب هاه.

الحاجة الزُهرا: هه... خيرة بنيتي أيضاً وهي عون لي، أسعد كثيراً عندما تناديني أمي، حتى إني أشم ريح عبد القادر بمجاورتها، وحديثها يشبه حديث عبد القادر تماماً.

الشيخ بوطالب: إنه قلب الأم يا حاجة، المهم؛ أحمد الله فقد تم توزيع المال وما تيسر من الذبائح للمحتاجين في وادي الحمَام[1] كلها واتَّبعنا نهج أخي الحاج محي الدين.

الحاجة الزُهرا: الشكر لله تعالى على نعمائه التي لا تحصى ولا تُعَد، فرحة المحتاج في العيد لا تضاهيها فرحة.

الشيخ بوطالب: الحمد لله، استأذنكم الآن بالرحيل.. فلدي واجبات كثيرة اليوم.

الحاجة الزُهرا: أعانك الله، قل لي هل من أخبار عن أي حاج من حجاج بيت الله الحرام؟

الشيخ بوطالب: إلى الآن لا أخبار، ولكن هنالك قافلة سوف تصل بعد أسابيع ستحمل الأخبار بإذن الله.

* * *

بعد أن هُيئت الرواحل وأُعدت للسفر غادر الحاج محي الدين رفقة ابنه مكة المكرمة يشقون الصحراء متوجهين إلى مدينة العلم بغداد، ولم يكن هنالك مؤنس في المسير سوى أن يتبادلا أطراف الحديث.

عبد القادر: الصمت والهدوء في هذه الأرض يا حاج له طعم آخر، والمكان رائع روعة الخالق... تعجز الكلمات عن وصفه.

الحاج محي الدين: فعلاً يا بني، إن هذه الأرض الواسعة بما تحمل من جبال وصخور شهدت مرور أقوام كثيرة.. والعرب استقروا عليها فاستلهموا الكرم والحمية من ترابها، ورسموا العديد من الأبيات من قفارها، وامتطوا الخيول وبارزوا بأشد فرسانها... وأنت يا عبد القادر كيف يبدو لك المكان؟ فلقد قلت لي إن بصيرتك الشعرية ترى ما لا يراه غيرك.

---

(1) قرية واد الحمام: تقع في سهل غريس في الجهة الغربية للجزائر.

عبد القادر: والله الشاعر منا بكلامه يا حاج يعيش دنيا غير التي يعيشها الناس، ويصف ما يبهر العين أيضاً، لكن بقلب هذا الشاعر يجب أن يكون هنالك فارس مغوار.. وفي هذا المكان أقول:

لو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا — بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جُلت في روضة قد راق منظرها — بكل لون جميل شيّق عطر
تستنشقنَّ نسيماً طاب منتشقا — يزيد في الروح، لم يمرر على قذر

الحاج محي الدين: جميل... وهذا ما أشعر به الآن في هذا المكان الفسيح.. أبدعت يا بني.

عبد القادر مقاطعاً: .. يا حاج ينتابني الخجل بتقديرك دائماً، إني أرى العين مهما زاد جمالها وبريقها لا تبلغ مدى سحر المكان ولا تناغم حركة الكثبان، فكل شيء يتلألأ بين الأرض والسماء.

الحاج محي الدين: أحسنت أيضاً في وصفك، لقد أوجزت فأبدعت... يضحك الحاج محي رفقة ولده عبد القادر.

عبد القادر: أريدك الآن يا حاج أن تحدثني عن ذاك اليوم لما غبتُ مع أقراني والسائس لمدة ثلاثة أيام...

الحاج محي الدين: امم.. يومها كان عمرك قد تجاوز العشر سنوات بقليل، وكانت الظُلمة شديدة في تلك الليالي والقمر يخترقها قدر المستطاع.. أما أمك وأخواتك فما هدأ لهم بال ولم يرق لهم جفن، يخشون من أن يكون قد أصابك مكروه، واغتاظوا كثيراً لعدم مُبالغتي في الخوف عليك، فلقد كنتُ أُدرك أنك فارس وإن صَغُر سنُّك، ومن كان معكم خبير بخبايا البوادي.. المهم، عند عودتك تركت فرسك وهممت مسرعاً مثل البرق إلى والدتك....

عبد القادر: وحدث ما حدث... وانفجر غضبك..

الحاج محي الدين: هاه.. هو ليس بالغضب الذي يحمل التوبيخ بقدر ما يحمل من الفائدة.

عبد القادر: أجل يا أبي، أُدرك هذا جيداً.

الحاج محي الدين: المهم أتذكر أني قلت لك: الخيل أولاً قبل زيارة الأهل، فهي هبة عظيمة وهبنا الله إياها.. علينا بعد امتطائها أن نُحسن إليها ونعتني بها وننظف قوائمها ونقدم لها علف المساء ونتحقق من وجود الماء الصالح لسقايتها، ثم بعد ذلك تعود إلى أهلك.

عبد القادر: فعلاً.. الخيلِ معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، في ذلك اليوم يا أبي تعلَّمت الكثير من نصائح السائس، وكيف يجب اختيار النبات إذا ما أطعمنا الخيول في البراري، وتعلمت من نصائحك كثيراً، كم أفتخر بك يا حاج، لطالما كنت المعلِّم والموجِّه، أخشع عند سماع قصصك وقصص الأنبياء منك، حفظك الله لنا وللناس جميعاً.

الحاج محي الدين: بارك الله فيك يا بني.. تذكَّر دائماً إن الخيل تفقد نُبلها إذا ما استعملت للحراثة وحمل الأثقال، فالبركة زالت من باطن الأرض لهذا السبب، فالله لم يخلق الحصان إلا للعدو، والثور للحراثة، والجِمال لحمل الأثقال، ولن يربح الإنسان شيئاً إذا غيَّر في مشيئة الله.

* * *

المدينة المنورة

بعد مسير عدة أيام وصل الحاج محي الدين وابنه إلى طيبة الطيِّبة، إلى المدينة المنورة، وكانت المرة الأولى التي يزور فيها عبد القادر هذا المكان، فتوقف مندهشاً...

عبد القادر: انظر . . انظر يا أبي إلى هذه الروضة الشريفة، إني استنشق عبيرها الطيب، يا له من مكان، أي شرف نحن فيه يا حاج.

الحاج محي الدين: نعم يا بني، أرح راحلتك الآن وترجّل لنذهب إلى ذلك المكان، فهو أشبه بالجنة على الأرض، انظر هنالك . . . ماذا ترى؟

عبد القادر: إني أرى قبوراً قد رصَّ بعضها إلى بعض كأنها جموع اتحدت على كلمة واحدة.

الحاج محي الدين: أحسنت يا بني إنها بقيع الغرقد، تحوي تراب الجنة . . تحوي خيرة من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

عبد القادر: صلى الله عليه وآله وسلم.

الحاج محي الدين: فالسلام على من دُفن فيها . . إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

هيا بنا يا بني سنزور الآن قبر خير خلق الله ونبي هذه الأمة جدك أبا القاسم، وبعدها نواصل رحلتنا إلى دار السلام بغداد البهية.

عبد القادر: وهو كذلك يا حاج، يا لها من مثوبة أنتظرها بفارغ الصبر.

* * *

الجزائر، قرية قيطنة، «سهل غريس»، الغرب الجزائري، في بيت الحاج محي الدين.

لآلة خيرة: أمي الزوهرا . . . أود أن أشكرك على سعة كرمك، فلقد غمرتني بعطفك طيلة غياب عبد القادر.

يا حاجة زوهرا . . .

الحاجة الزُهرا: أه... نعم يا بنيتي.

لآلة خيرة: نعم يا بنيتي؟! فيمَ تفكرين؟

الحاجة الزُهرا: لا، لا شيء.. حماك الله بنيتي خيرة، أنت رفيقتي بغياب أهل الدار، هل تعلمين أنه في زمن مضى كنت أبقى وحيدة حتى وإن كانت النسوة معي.

لآلة خيرة: ولماذا؟

الحاجة الزُهرا: ذلك أني كنت افتقد عبد القادر وإخوته عند مرافقة الحاج محي الدين خارج القرية نحو البوادي البعيدة لتعلُّم الفروسية والمبارزة والصيد، وكان يأتي والده فرحاً به لما أبلاه عبد القادر من بلاء حسن فاق كل من كان معه من أقرانه.

لآلة خيرة: عظيم... أهذا ما كنتِ تفكرين فيه؟

الحاجة الزُهرا: لا.. شيء آخر، سأخبرك بما يشغل بالي.. اسمعي، فلقد رأيت في منامي البارحة أمراً جعلني أشعر بالسرور، ولكن أقلقني أيضاً.

لآلة خيرة: ما تفاصيل هذا المنام الذي يسرُّ ويُقلق في آن واحد، خيراً إن شاء الله؟

الحاجة الزُهرا: لقد رأيت مُلكاً كبيراً وجنوداً وعساكر...

لآلة خيرة: هاه؟

الحاجة الزُهرا: وصرت أمشي بين جموع الناس كي أسأل أين أنا، ولمن هذا المُلك الكبير، فسمعت الكل ينادي: «الشريف عبد القادر.... الشريف عبد القادر»، سارعت للبحث عنه فلم أجده، والناس كانت تنفر من المكان، وهذا ما زاد من قلقي.

لآلة خيرة: مم.. لا تقلقي يا أماه، ماذا عساه أن يكون، رؤيا

صالحة من أم صالحة اشتاقت لأهل بيتها، والله عندما قلتِ مُلكاً كبيراً بادر إلى ذهني عبد القادر، وأما أنكِ لم تجديه، فربما قد يكون مشغولاً بأمور البلاد والعباد، أما النفير فالناس لم تكن يوماً على قلب واحد.

الحاجة الزُهرا: أصحيح؟...

لآلة خيرة: لا أدري ولكن أعتقد هذا.

الحاجة الزُهرا: أرحت قلبي بنيتي. وكأن عبد القادر يحدثني الآن، لقد صرتِ مثله في الإقناع، بل أصبحت تجيدين تفسير الرؤى كذلك.

لآلة خيرة: هه.. ليس لهذا الحد.

الحاجة الزُهرا: سدَّد الله خُطاك بنيتي.

دار السلام بغداد

زار عبد القادر قبر النبي الأكرم للمرة الأولى ثم راح مع أبيه يمضيان في رحلتهما الطويلة، يشقّان السهول والوديان الكبيرة كي يصلا إلى بغداد. . . فالوالد كان يسعى في رحلته هذه أن يُطلع ابنه عبد القادر قدر المستطاع على بلاد العرب والمسلمين قصد إثراء فكره وتنمية مداركه بمعرفة حواضر أمته وأحوالها.

على وقع رفع الأذان. . . .

الحاج محي الدين: يا له من يوم مبارك أن ندخل بغداد على وقع أذان الفجر، سنصلي هنا ثم نكمل الطريق.

عبد القادر: حسناً يا حاج. . سوف أُريح الراحلة الآن.

* * *

كانت بغداد تشهد حركة علمية واسعة في شتى العلوم وبلغت قمة مجدها ومنتهى فخرها، وهذا ما جعل الناس تتقاطر عليها من كل حدَب وصوب، وكان لعبد القادر بزيارته هذه المدينة نصيب في ذلك.

عبد القادر: تقبل الله منك يا حاج.

الحاج محي الدين: منا ومنك صالح الأعمال، هل أخبرت يا بني الحاج اللعربي بفحوى الرسالة كي يبلغها إلى الأهل في الجزائر.

عبد القادر: نعم نعم.. أمر مهم كهذا لا يمكن أن يُنسى، فوالدتي الحاجة الزهرا والأهل يجب أن يطمئنوا على أحوالنا، ولقد أخبرته بمجرد أن يصل إن شاء الله إلى الجزائر، أن يبلغهم أننا في أحسن الأحوال.

محي الدين: بوركت يا بني.. الأم كالوطن، عندما تكون فيها ومعها تنعم بوجودها، وعندما تبعد عنها أو تفقدها تصيبك الحسرة وتبقى في وجدانك تُحيي أواصر الشوق إليها... أوصيك يا بني، فالجزائر والدتك الكبرى، صُنها وارفع قدرها بما أوتيت من قوة، ولا تدَّخر جهداً للدفاع عنها إن عظم البلاء فيها أو ممن أراد أن يستعبد أهلها.

عبد القادر: والله في كل مرة أتحدث مع نفسي عن وطننا الجزائر أجده راسخاً في وجداني... إني من صلبك يا حاج، فلقد استمديت روح الحمية منك.

الحاج محي الدين: إنك كذلك يا عبد القادر، واعلم أنه لشرف كبير لا يضاهيه شرف أن تضحي من أجل بلادك.

عبد القادر: صدقت يا أبي، هي هكذا الأوطان عند رفع الظلم تنمو أشجارها في تربة التضحيات وتزدهر بالجد والعمل وتكاتف أيدي المخلصين.

الحاج محي الدين: أحسنت يا بني، الآن وبعد أن نتناول ما قسمه الله لنا من طعام سوف أخذك إلى مكان تحفُّه الملائكة، إلى باب العلم، ونزور بعد ذلك أخاً عزيزاً وشيخاً جليلاً.

* * *

وفي بيت الحكمة في بغداد يقف عبد القادر مذهولاً.

عبد القادر: تبارك الخالق، ما هذا؟ أين نحن؟؟ وما كل هذه الكتب؟ ومَن هؤلاء؟؟

الحاج محي الدين: حسبك حسبك يا بني، نحن الآن في بيت الحكمة، هنا تجد كل الكتب والتراجم... هنا يا ولدي خزائن العلم.

عبد القادر: ومن أسس كل هذا؟... لي رغبة يا حاج أن أقرأ كل هذه الكتب وآخذها معي إلى الجزائر.

الحاج محي الدين: هيا لندخل الآن يا بني وسأحدثك مطولاً عن سيرة هذا المكان الرفيع.

* * *

وبعد زيارة بيت الحكمة وعلى مقربة من أسواق بغداد...

عبد القادر: لقد بلغت دهشتي اليوم مبلغاً عظيماً، فكل شيء بهرني في بيت الحكمة، ألم ترى يا حاج كيف يتم ترجمة المخطوطات ونسخها وتجليدها، وحلقات الطلاب تجعلك تسترسل في الحديث معهم من دون توقف.

الحاج محي الدين: والله لم يبهرني إلا أنت، في كل سؤال أو حلقة أراك تتبادل أطراف الحديث وتسأل عن كل صغيرة وكبيرة... فهذا المكان بلغنا أنه كان يعج أكثر بالعلماء في قديم الزمان.

عبد القادر: شغفي بالكتب لا مثيل له أبداً، فهي أبواب مغلقة، كلما فتحت صفحات أحدها استنار العقل وارتكزت الروح على حقائق وأخبار الأولين التي منها نستفيد.

وتلفتهما أصوات الناس في السوق...

عبد القادر: ما هذا السوق يا حاج..؟ انظر إنه مُعدٌّ فقط للخيل.. لقد وجدت ما أبحث عنه.

الحاج محي الدين: انتظر يا بني.. انتظر... نحن الآن في خان المسافرين وسوف نقيم الليلة هنا، وهذا السوق اسمه سوق السراجين، كل الفرسان تأتي إلى هذا المكان.

عبد القادر: وأنا واحد منهم.

الحاج محي الدين: هه، بالطبع يا بني.

وعند حلقة من الناس يلتفون حول الحكواتي.....

عبد القادر: تعالى يا أبي واسمع، إنه فصيح اللسان ولا يتوقف عن الكلام.

الحاج محي الدين: آه.. إنه حكواتي بلاد الشام يُطرب زوار الأسواق بقصص أسلافنا الأولين ونوادرهم الطريفة.

الحكواتي: «يا حضرة السامعين.. العقل زينة وغريزة لا قدرة لأحد أن يصفها في نفسه ولا في غيره، ولا يُعرف إلا بالأقوال والأفعال الدالة عليه.

في قصص العقل أقول: دخل رجل إلى السلطان وامتدحه فأمر له بخمسين ديناراً، فسأله أن يأذن له بتقبيل يده... فأَذِنَ له فقبَّلها وخرج... فما انتهى إلى الباب حتى كان قد فرَّق المال بأسره، فسألوه عن ذلك فأجاب منشداً:

لمست بكفِّ كفه ابتغي الغنى ولم أدرِ أن الجود من كفه يُعدي

فأمر له السلطان بأضعاف ذلك...».

الناس المجتمعون حول الحكواتي: .. هاه عظيم... عظيم.

«أما عن قلة العقل فأقول.... قيل لبعض الحمقى: كيف

صمتم في شهر رمضان؟ فأجابوا اجتمعنا ثلاثين رجلاً فصمناه يوماً واحد. . . ».

فاختلط ضحك الناس وحديثهم. . .

الحاج محي الدين مبتسماً: هيا بنا يا ولدي كي نرتاح قليلاً، بعد ذلك نتوجه سوياً إلى زيارة مقام شيخ الشيوخ وتاج العارفين الشيخ عبد القادر الجيلاني، فسوف تسرُّك مآثره وعلمه، وبعد ذلك نحضِّر للسفر الطويل.

عبد القادر: إلى الجزائر يا حاج؟

الحاج محي الدين: لا. . لا يا بني؛ بل إلى الفيحاء دمشق مرة أخرى، فلي فيها أمر مهم.

* * *

كانت الحاجة الزهرا كعادتها تنتظر كل يوم وصول قوافل الحجاج لكن من دون جدوى، فلم يكن بينهم الحاج محي الدين وابنه عبد القادر، إلى أن وصلها الخبر اليقين بعد طول الانتظار.

وفي الجزائر قرية قيطنة «سهل غريس» الغرب الجزائري في بيت الحاج محي الدين. . . دق الباب.

الحاج اللعربي: السلام على أهل الدار. . . يا أهل الدار. . . .

الحاجة الزهرا: نعم نعم، تقترب وتقول من وراء الباب: مَن على الباب؟

الحاج اللعربي: أنا الحاج اللعربي، ولقد كنت رفقة الحاج محي الدين والحاج عبد القادر.

الحاجة الزهرا: الحج. . .

الحاج اللعربي: وأوصاني أن أبلغك رسالة، فهم بخير والحمد لله.

الحاجة الزهرا: هاه، وأين هم، لِمَ لم يأتوا معك؟

الحاج اللعربي: قال إنه سوف يَبْلغ بغداد والعديد من البلدان في مسيره رفقة ابنه، وسوف يكون بينكم قريباً بإذن الله.

الحاجة الزهرا: الحمد لله. . . أشكرك يا حاج.

الحاج اللعربي: وأوصاني للشيخ بوطالب كي أبلغه رسالته إليه، وأقول له أن الحاج محي الدين يوصيه أن يداوم رعاية شؤونكم في فترة غيابه.

الحاجة الزهرا: بارك الله فيك يا حاج، فلقد اطمأن قلبي كثيراً. . . . آمل أن لا يطول غيابهم.

دمشق الفيحاء

بعد ليالٍ وأيام طويلة وصلوا إلى مدينة دمشق، توجه الأب وابنه إلى زاوية المغاربة بمحلة السويقة، وهي في العادة مكان يضم الوافدين من أقطار العالم للتوجه إلى زيارة بيت الله الحرام والعودة منها إلى ديارهم كذلك.

* * *

الحاج محي الدين: ها قد عُدنا إلى نفس المكان الذي انطلقنا منه يا بني.

عبد القادر: أجل يا أبي، ولكن ما السر في ذلك يا حاج.. لم تخبرني بشيء طوال المسير؟

الحاج محي الدين: سوف أخبرك الآن يا عبد القادر، فلم أُرِد أن أشغل بالك، كان بالإمكان أن نسلك طريقاً مُغايراً، لكن لي حاجة في نفسي ويجب أن أعرف تفاصيلها.

عبد القادر: ما الأمر إذاً؟

الحاج محي الدين: في أيام مناسك الحج يا بني رأيت في المنام أني أزرع غرساً في دمشق، وبعد ذلك هممت إلى سقايته، فأنبت وأزهَر، وكل من يستنشق ريحه يُسرُّ ويفرح كثيراً، فانتابني الشوق إلى زيارة المدينة، ولي صديق عالم رباني جليل بعمرك أو أكبر بقليل، أودُّ زيارته وأن أتقاسم معه تفاصيل ما رأيت، فهو

ضليع في تفسير الرؤى والخواطر، وعمره في المعرفة والعلم أكبر من سنه.

عبد القادر: ازداد فضولي للتعرف على هذا الشيخ؛ فلنذهب إذا أردت الآن.

الحاج محي الدين: على بركة الله إذاً.

عبد القادر: هيا بنا يا حاج... انظر ما أجمل المكان هنا، والله ما وصفت الجنة بشيء... إلا وفي دمشق مثله.

الحاج محي الدين: فعلاً المكان جميل، أحسنت يا بني.. قولك صواب كعادتك وتنتقي أحسن الكلام، سوف يسرُّ الشيخ بك كثيراً.

* * *

مشى الرجلان في شوارع دمشق، وطافا بالعديد من الأماكن إلى أن وصلا إلى جوار الباب الشرقي لمقام صلاح الدين، تحديداً إلى بيت الشيخ يوسف بدر الدين، والذي كان يُعلِّم في بيته المحاذي للجامع أصول اللغة والنحو والصرف ومناهج التصوف والذكر، وكان له مريدين كُثر.

كان باب بيت الشيخ يبقى مفتوحاً وهو يُدرِّس تلامذته إلى موعد أذان الفجر، فوقف الحاج محي الدين وطرق الباب وقال....

الحاج محي الدين: لك من الجزائر السلام، السلام عليك يا شيخ يوسف، إن لك ضيوفاً الليلة.

الشيخ يوسف بعد أن قام: يا الله.. وعليك السلام... لكم كل الترحيب، إني أعرف هذا الصوت... الحاج محي الدين

الجزائري، أشرقت الأنوار.. تفضل يا حاج أنت ورفيقك، دمشق كلها ترحب بك.

الحاج محي الدين: كعادتك يا شيخ يسبق قلبك الترحيب فينطق لسانك بطيب الحديث، هذا ولدي الحاج عبد القادر وصديقي إن شئت أيضاً.

الشيخ يوسف بدر الدين: ما شاء الله ما شاء الله.... تفضلوا، تفضلوا.

الحاج محي الدين: لقد أتينا من أرض الحجاز بعد أداء مناسك الحج، ومكثنا في بغداد بضعة أيام، وها نحن الآن في دياركم.

الشيخ يوسف: ونعم الضيوف أنتم، تفضلوا.

الحاج محي الدين: زاد الله من فضلك يا شيخ يوسف... هيا أتمم درسك فإني مشتاق لسماعك، لقد قلت لبُنيَّ عبد القادر إن الشيخ يوسف علمه أكبر من عمره.

الشيخ يوسف: لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم.. فإن ظن أنه علم فقد جهل.

الحاج محي الدين: بارك الله فيك يا شيخ.

الشيخ يوسف: وفيك بركة وفضَّلك الله بالخير دائماً، بسم الله.. فكما كنت أقول يا أحبائي: الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين، فعليكم أن تتحروا الصدق في الحديث وفي كل الأمور إن صغرت أو عظمت، فالكلمة ترجمة لما في العقل وتعبير لما في السرائر وما استُودع في الضمائر.. أليس كذلك يا حاج عبد القادر؟

عبد القادر: كلامك سديد يا شيخ يوسف، فإن تم العقل نقص

الكلام، ويستدلُّ على عقل الرجل بحُسن مقاله، فعلينا أن نُحسن الكلام والتصرف على حد سواء.

الشيخ يوسف: أحسنت. وماذا ترى يا حاج عبد القادر في حال الناس وما غلب على طباعهم الآن؟

عبد القادر: والله بعد علمك يا شيخ أقول إن الاختلاف في الخير رحمة، لكن ما عدا ذلك فهو مدعاة للفرقة واستقواء للظلم، فعلينا جميعاً أن نكون لهذا الدين زيناً عليه لا شَيناً، وأن نتحرى الكلام.. فعثرة اللسان أعظم من عثرة الأقدام، ومن كثر كلامه زلَّ.

الحاج محي الدين: أحسنت يا حاج عبد القادر.

الشيخ يوسف: بوركت وطيَّب الله فاك بذكره والسعي لمرضاته... ما شاء الله، من أين لك هذا كله!...

الشيخ يوسف مشيراً لتلاميذه:.. آذن لكم بالانصراف الآن، على أن نُكمل في الغد إن شاء الله.

ثم يوجه الحديث إلى الحاج محي الدين وابنه عبد القادر....

تفضلوا يا حجاج بيت الله إلى بيت الضيافة، حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً.

* * *

الحاج محي الدين: زاد الله من الخير لك يا شيخ يوسف، أود أن أخبرك عن أمر ما.

شيخ يوسف: تفضل.. كلّي آذان صاغية يا حاج.

الحاج محي الدين: بوركت، لقد رأيت في ما يراه الناس في منامهم أني أزرع زرعاً في دمشق وأسقيه بعد ذلك، وإذا بالزرع قد أينع وزهر واشتد عوده وطاب ريحه؛ فما رأيك في ما رأيت؟

الشيخ يوسف: اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا. . . يا حاج محي الدين كما أعلم أوقاتك كلها بذكر الله معمورة، ولسانك رطب دائماً بالصلاة على النبي المختار، ورؤيتك في باب الصلاح. . فأما الزرع فهو النسل والولد، وأم السقاية فهي زاد الدنيا وأجر الآخرة، فمن اشتد عوده وأزهر فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن طاب ريحه جمع المحبين من حوله، فلربما أرض الشام تبارك بنسلك يوماً.

الحاج محي الدين: هاه، واللهِ كنت أدرك بيان قولك وصحيح لسانك.

الشيخ يوسف: وأنت يا حاج عبد القادر ماذا تقول؟

عبد القادر: يا شيخنا بعد الذي قلته ما عساي إلا أن أردد وأقول عن مجلسكم هذا. . رأيت العز في أدب وعلم. . . واللهِ لقد طاب لي المقام بينكم.

الشيخ يوسف مبتسماً: ابنك هذا يا حاج محي الدين لا خوف عليه، وله شأن كبير بإذن الله.

الحاج محي الدين: والله إني أفتخر به حيثما نزلت وارتحلت ففي الشعر تجده شاعراً متأملاً في ملكوت الله، وفي الدين فقيهاً وموجهاً وعاشقاً لرب العباد، وعند النزال تراه فارساً لا يُشقُّ له غبار ولا يهزم في حلبة النزال، ويسعى لإحقاق الحق ودفع الغبن عن أي مظلمة يراها أو تجبُّر، وإن سألته كيف السبيل إلى ذلك أجاب إنه استعان بما كرَّمه الله به من عقل وباطن لهزم من عاداه.

الشيخ يوسف: حفظه المولى، وجعله الله ذخراً للمظلومين في وجه كل المستبدين، سعدت بمعرفة الرجال.

القاهرة المحروسة

انقضت أيام الإقامة في دمشق، وزار الحاج محي الدين رفقة ابنه بعض المدن المجاورة لها، ثم توجها بعد ذلك إلى قبلة العلماء وجوهرة الشرق، القاهرة، وكانت آنذاك تشهد حركة علمية كبيرة وازدهاراً ثقافياً بعد التصدي للحملات العسكرية الاستعمارية وإفشالها.

وبعد أن وصلا إلى القاهرة واستراحا من السفر، خرجا يتنقلان بين معالمها التاريخية، ولم يتوقف الطالب عبد القادر عن سؤال المعلم محي الدين عن كل شاردة وواردة تجول في خاطره.

أصوات وحركة الناس في السوق. . . .

عبد القادر: لقد أحسنت صنعاً يا حاج بأن عرجت بنا على القاهرة، لطالما وددت التمعن أكثر في حضارتها وتاريخها.

الحاج محي الدين: لو كان لي القدرة يا بني كنت سأجول بك كل المدائن في هذه الدنيا، ففي الترحل والترحال إدراك للمعارف والأوطان، وها نحن الآن في القاهرة، هنا العلم والتاريخ كله يا بنيَّ، سوف نتوجه إلى جامع الأزهر وبعض الجوامع والأماكن العتيقة، ولكن قبل ذلك أريد أن أقتني بعض الكتب. .

عبد القادر: وأين نحن الآن يا حاج؟

الحاج محي الدين: هنا يا بني خان الخليلي، هنا تجد كل ما تريد في هذه الأسواق الجميلة، وذلك المقهى العتيد يجمع حلقات الفكر والسياسية.

عبد القادر: أريدك أن تحدثني عن أمور السياسة هنا وكيف تصدى الناس لحملات المستعمر.

الحاج محي الدين: سأخبرك بكل ما تريد، لكن هيا بنا نسرع الآن لاقتناء بعض الكتب قبل أن تقفل المحالُّ أبوابها.

* * *

يعود الحاج محي الدين وهو يحمل مجموعة كبيرة من الكتب..

عبد القادر: تأخرت كثيراً يا حاج.. وما كل هذه الكتب؟! دعني أساعدك.

الحاج محي الدين: لا بأس يا بني.. هذا كتاب للمؤرخ تقي الدين المقريزي، أما باقي الكتب فهي في العلوم وخبايا الحروب والفلك والفلسفة ودروب شتى في العلم سنتدارسها سوياً عند العودة للجزائر، هيا بنا الآن.

عبد القادر: سيكون ذلك إن شاء الله، فخير جليس في الزمان كتاب...

الحاج محي الدين: فعلاً يا بني.

عبد القادر: لقد لاحظت يا أبي أثناء انتظارك أن جامع الأزهر لا يعد جامعاً فقط، أرى إنه مدرسة متكاملة تفوح بمسالك العلم، وروادها كثيرون ومن مختلف الأجناس.

الحاج محي الدين: نعم؛ لقد تطورت الأمور كثيراً عن ذي

قبل، فبحسب ما قيل لي إن كل نواحي مصر تشهد تطوراً في المناهج وإنشاء مدارس مختلفة للتعليم.

عبد القادر: هذا صحيح، لقد تحدث أحد الطلاب أمامي وقال إن هنالك بعثات لطلاب مصريين إلى خارج القطر المصري لدراسة علوم الغرب وجلبها إلى مصر كي ينتفع بها رواد المعاهد والمدارس.

الحاج محي الدين: خيراً فعلوا.. فسالك طريق العلم ونفع الناس كالسالك طريق الجنة، والعلم هو أول خطوة لمعرفة الحق، وأول منارة للثورة والدفاع عن القيم النبيلة.

بعد المسير لفترة من الوقت..

عبد القادر: يا حاج أريد أن أسألك عن أمر أحسست به بعد عودتك من عند بائع الكتب.

الحاج محي الدين: تفضل يا بني، ما الآمر؟

عبد القادر: أشعر أنك مشغول البال، وقلَّ حديثك، وكأنك تحادث نفسك بأمر ما!

الحاج محي الدين: كعادتك.. شديد الملاحظة دائماً، فعلاً يا بني، فقد سمعت أخباراً غير سارة عن الجزائر.

عبد القادر: الجزائر؟ ماذا هنالك؟؟

الحاج محي الدين: آخ يا بنيَّ عبد القادر، بالصدفة سمعتهم يقولون أن حادثة كبيرة وقعت في قصر الباشا الداي حسين عندما اجتمع المدعوون عنده.

عبد القادر: وما الذي حدث؟

الحاج محي الدين: لقد وقع صدام بين الداي حسين والقنصل الفرنسي، ويقال إنه قد لطمه بالمروحة التي يحملها، وغادر القصر بعد أن طرده منه.

عبد القادر: لماذا.... وماذا حدث بعد ذلك؟

الحاج محي الدين: لا أعرف السبب، ولكن القنصل رأى في ذلك إهانة وأبلغ رؤساءه في فرنسا، ويقال إن الملك الفرنسي شارل العاشر قد دعا للاجتماع بأركان جيشه، وهو ملك جائر وسيئ... وطباع القرصنة من أبرز صفاته.

عبد القادر: كل هذه الأخبار ولا تخبرني كعادتك يا حاج.

الحاج محي الدين: لم أُرد أن أبعث في نفسك القلق يا بنيَّ.

عبد القادر: لن ينالوا منا شيئاً يا حاج، يقتلهم الغيظ لتنامي قوتنا البحرية، فالأرض أرضنا والجزائر منبتنا، ولنا أسطول عظيم، والدّاي حسين رجل عسكري.

الحاج محي الدين: لا أدري، ولكن الأرض لا يدافع عنها إلا أبناؤها ومن يحمل في قلبه الغيرة عليها، وليس دائماً من يحكمها.. المهم الآن أن نعود فوراً إلى الجزائر، أرى أن الأمور لا تتجه على نحو سليم.

القسم الثاني

السيرة الحربية

سارع الحاج محي الدين رفقة ولده للسفر إلى الجزائر، لكن الأحداث والتطورات على ضفاف البحر الأبيض المتوسط كانت تتهيأ لبداية تاريخية جديدة. . . . ووقع ما لم يكن في الحسبان. . . ذريعة ما حدث للقنصل الفرنسي «دوفال» كانت أكبر عنوان. . . وكانت سبباً رئيساً للتدخل العسكري، وتنصل فرنسا من مشاكلها التي كادت أن تعصف بها وتجعلها في خبر كان. . . فاجتمعوا لذلك بقصد توزيع مهام العدوان.

* * *

فرنسا سنة 1827م، ملك فرنسا شارل العاشر رفقة الدوق اورليان لويس فليب.

الملك شارل العاشر: ليس لدينا الوقت الكافي يا أورليان، لقد حانت الفرصة، وتحطَّم أسطول الجزائر في معركة نافرين[1]، علينا الآن أن نُطبق عليهم.

الدوق «اورليان لويس فليب»: لقد أخبرت الكونت دي بورمون والأميرال دوبري وكل رؤساء الاستطلاع، وهم قادمون الآن. . .

الملك شارل العاشر مقاطعاً: أريد الاستطلاع البحري على

---

(1) معركة نافرين هي معركة حربية وقعت في اليونان سنة 1827م بين الأسطول العثماني مدعوماً بالأسطول الجزائري ضد أساطيل الحلفاء: بريطانيا وفرنسا وروسيا.

وجه الخصوص. . . لن أدَّخر جهداً للقضاء عليك يا داي حسين ومع من تحالفت معهم لزعزعة ملكي، ويجب أن تكون أيالة[1] الجزائر كلها بيد فرنسا العظمى. . . هيا انصرف الآن.

الدوق «اورليان لويس فليب»: سمعاً وطاعة سيدي الملك. . سيصلون للاجتماع بعد قليل سيدي.

* * *

الاجتماع الحربي الفرنسي سنة 1827م.

الملك شارل العاشر: لقد اجتمعت بكم اليوم وأنتم تعلمون ما يحدث لفرنسا العظمى ولكرامتها، وقررت ما يلي. .

سوف نبعث بوفد رفيع المستوى بقيادة القبطان كولي في سفينة حربية إلى الشاطئ الجزائري، ونأمر الداي الحسين أن يستقبل القبطان كولي والقنصل دوفال بمحضر الديوان ويعتذر هنالك أمام كل القناصل الأجانب، على أن يرفع العلم الفرنسي فوق كل الحصون والقلاع الجزائرية بما في ذلك القصبة، وأن تطلق مئة طلقة مدفعية تحية للوفد. . . . . . . انتهى البيان، يمكنكم الانصراف وتطبيق الأمر فوراً.

(1) أيالة: منطقة إدارية بحسب التقسيم الإداري للمناطق في الفترة العثمانية.

بداية النضال بعد هجمة الاستعمار

تعثرت المفاوضات وأعلن الداي حسين رفضه الشديد لما ورد على لسان قائد الوفد البحري الفرنسي العنيد، وخاطبهم الداي حسين قائلاً: . . . بقي عليهم مطالبتي بتسليم زوجتي كجارية في بلاط ملكهم، نستطيع الدفاع عن أنفسنا.

في هذه الأثناء توقف الحاج محي الدين عند قبر والده الحاج مصطفى في طرابلس الغرب، ثم عبر رفقة ابنه الحواضر التونسية ووصلوا إلى الشرق الجزائري، وكانت الأحداث العسكرية السيئة تتفاقم كل لحظة وحين، والسواحل الجزائرية تواجه قرصنة بحرية عبر السفن الفرنسية.

* * *

الجزائر 1829م، قرية قيطنة «الزاوية القادرية»[1]، الغرب الجزائري، مجلس آل هاشم.

الحاج محي الدين: . . . أتفق معكم في ما تفضلتم به، أما عن الحادثة، وبحسب ما فهمت أن الداي حسين طلب جواباً من القنصل الفرنسي، فلم يتلقَّ رداً من ملك فرنسا بتصفية حساب الدين الذي عليهم.

---

(1) الزاوية القادرية: هي إحدى المدارس القرآنية الشعبية المنتشرة في الجزائر ذات التوجه الصوفي.

الحاج بن سليم: نعم، وأجابه القنصل الفرنسي بعجرفة المتعالي المستعمر، وقال له: أتظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل عن قدره لجواب الداي حسين. وهنا الداي طرد القنصل، وقيل إن مروحة الداي كانت تشير إلى الباب تدعوه للخروج ولم تلمسه أبداً.

الحاج محي الدين: هكذا دائماً المستعمر يتحجج بأي ذريعة لتوسيع أطماعه ونفوذه، ولكنهم قد اخطؤوا العنوان إذا اقتحموا بابنا.

الحاج بن سليم: فعلاً هي ذريعة لما أصابهم من عجز في تجارتهم وتصدُّع في سياستهم وتنصُّل من الديون التي عليهم، والله إنهم قراصنة تحركهم الأطماع.

عبد القادر: عفواً. . . أستأذنكم بالحديث بعد الذي تفضلتم به في هذا المجلس.

الحاج محي الدين: ربما يا بني لا كلام يقال بعدما تقدَّم آل الحشم وآل هاشم برأيهم.

الحاج بن سليم: دعه يا حاج محي الدين يتحدث ويخبرنا ما يريد قوله.

عبد القادر: لقد اعتقدت فرنسا وقائد أسطولها كولي أن حصارها سواحلنا وقطع التعاملات التجارية أمر في صالحها. . فقوافل الجنوب حدَّت من حصارهم البائس، وإننا ننضوي تحت ما جاء في ديننا من أمور البيعة للداي والامتثال للسلطة، ولكن من رأى منكم منكراً فليغيِّره، وهناك أمور وسُبل عدة لدفع عدوان العدو وأطماعهم إذا ما أقدم على أي عمل حربي.

الحاج محي الدين: أحسنت يا بنيَّ.

الحاج بن سليم: ولكن العديد من القطع العسكرية الخاصة بهم قد أُسرت على غرار ما حدث شرق الجزائر للسفينة الفرنسية في ميناء عنّابة، وما قام به أحمد باي في قسنطينة حين استولى على المنشآت الفرنسية الواقعة في إقليمه، وهم ويطالبون الآن بالهدنة.

الحاج الجلول: الهدنة. . ، الهدنة لأن خزينتهم قد أوشكت على الإفلاس، ولقد طلبوا الوساطة من محمد علي باشا في مصر لدى الداي حسين لتمريرها.

عبد القادر: إنهم كما تفضلت وقلت يا حاج بن سليم إنهم قراصنة مراوغون. . . والقصد من كلامي أن لا نقف مكتوفي الأيدي، واللهِ يا حاج لو تقدموا خطوة نحو أرضنا فسنكون جميعاً لهم بالمرصاد، وإن استمروا بمحاصرة سواحلنا يجب أن نضع لهم حداً لذلك.

الحاج محي الدين: ما هذه الأصوات التي نسمعها خارج الزاوية؟

ارتفعت حدة صراخ الناس من خارج الزاوية. . .

عبد القادر: سوف أخرج للاطلاع على الأمر يا حاج.

الحاج بن سليم: أحيِّي في ولدك الحاج عبد القادر روح الشجاعة والإقدام. . . نِعْم الفارس.

الحاج محي الدين: لك الشكر يا حاج بن سليم، الحمد لله لقد أصبح شاباً يافعاً واكتملت الأوصاف والمزايا الحسنة فيه.

عبد القادر: يا حاج. . يا حاج.

الحاج محي الدين: ماذا هنالك يا بنيَّ؟؟

عبد القادر: الناس تتناقل أخباراً أنه قد تجدد القصف البحري على مدينة الجزائر، ولقد بادر الداي حسين على الرد وقصف السفينة الفرنسية لابروفانس لاقترابها من الميناء الجزائري حين لم تأبه لأي إنذار بالابتعاد.

الحاج محي الدين: حدث ما توقعت، إنها نُذر الحرب الكبرى؛ اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم. علينا أن نتحرى عن الأمر أكثر.

* * *

كان القصف الذي وجهه الداي حسين للقطعة البحرية الفرنسية بالمدفعية... بمثابة الشرارة الأولى للعملية العسكرية، فأعطت فرنسا إشارتها الفعلية لانطلاق سُفنها الحربية من ميناء مدينة طولون الجنوبية وتم الإنزال في سيدي فرج الجزائرية، معلنة تجسيد نواياها الاستعمارية..

* * *

قصر الداي في مدينة الجزائر 1830م

الداي حسين يتحدث مع نفسه مرتبكاً: لقد اشتد الخناق ودعوتي للمفتي لحث الناس على القتال خطوة متأخرة، لقد أحكموا قبضتهم علينا... ماذا عساي أن أفعل الآن؟

الصاغ[1] محمود: جلالة المعظَّم... مندوب عن الجنرال دي بورمون يريد مقابلتك.

الداي حسين: ما الذي يريده مني؟... ماذا أفعل؟ دعه يدخل.

---

(1) الصاغ: رتبة عسكرية في الجيش العثماني.

المندوب الفرنسي: صباح الخير داي حسين، معي رسالة شفهية من الجنرال دي بورمون، رسالة لاقت إجماع كل القيادات.

الداي حسين: قل مباشرة فحواها.. فلا شأن لي بقيادتكم.

المندوب الفرنسي: لقد تمت السيطرة على كل أطراف مدينة الجزائر ولا سبيل لك إلا بتسليمها، وسوف توقِّع فرنسا العظمى تعاهداً معك يلزمها الحفاظ على أملاك المدنيين وحرياتهم الشخصية، وتضمن لك ولأسرتك وأملاكك وحاشيتك مغادرة البلاد حيث تشاء.

الداي حسين: مم..

المندوب الفرنسي: سيد داي حسين، أنتظر جواباً الآن.

الداي حسين: أخبرهم إنني سوف أفكر في الأمر وأبلغكم قبل انقضاء هذا اليوم.

* * *

وافق الداي حسين على شروط الغزاة، واختار تسليم مدينة الجزائر والتوجه إلى منفاه من دون إكمال القتال أو المواجهة، لكن المستعمر نقض المعاهدة بعد التسليم بساعات، وبدأ الغزو والتقدم نحو أرجاء البلاد دون أن يراعي في عهده إلّاً ولا ذمة.

الجزائر، قرية قيطنة، اجتماع في بيت الحاج محي الدين.

الحاج محي الدين: تفضلوا... تفضلوا جميعاً.

الشيخ بوطالب: يا حاج محي الدين الأخبار تفيد أن القطع البحرية الفرنسية قد وصلت محملة بالآلاف من الجنود واحتلوا مدينة الجزائر وحرقوا ودمَّروا ونهبوا، وأعدّوا عدتهم للزحف.

الحاج محي الدين: نسال الله اللطف... وكيف كانت المعركة؟

الشيخ بو طالب: بعد أن تم إخلاء الجزيرة التي نزل فيها الفرنسيس[1] وتكبدهم الخسائر لم يستطع جنود السلطة أن يرموهم في البحر كما كان الداي حسين ينوي، بل زاد عددهم.

عبد القادر: إنه تخطيط قديم يا عمّاه، الفرنسيس بطبعهم الاستعماري كلّفوا منذ أكثر من عقدين مهندساً عسكرياً اسمه بوتان بوضع خريطة لسواحل الجزائر ومنافذ الإنزال، وقام بها على طول الساحل.

الحاج محي الدين: فعلاً يا بنيَّ أحسنت، إنه كبيرهم نابليون بونابرت هو من أمره بذلك.

عبد القادر: وها هم الآن يحصدون ثمرة تخطيطهم الدنيء، ولكن أرى أن هنالك تقصيراً من جانبنا، وجبُن البعض في التعاطي مع من جاروا علينا بسفنهم، علينا بالمقاومة، فهي حق مشروع للجميع ضد هؤلاء المعتدين.

الحاج مصطفى: ولكن يا حاج عبد القادر قد قام ديوان الداي قبل تسليم مدينة الجزائر بالتصدي لعملية الإنزال في سيدي فرج وسهل اسطاولي، ويقال إن المواجهة كانت شديدة.

الحاج جلول: هه.. شديدة.. بلغني من أحد العسكريين في ديوان الحاكم أن صهر الداي إبراهيم أغا، قائد الجيش في منطقة الجزائر، فرَّ هارباً ولم يمنع حتى الإنزال البريّ، ما سبب انعكاساً سلبياً وبدأت الجيوش الفرنسية تتقدم إلى مركز المدينة، وكانت

---

(1) الفرنسيس: مصطلح شعبي يقصد به الجيش الفرنسي.

العديد من المواقع مكشوفة، وصهره هذا لا خبرة له بقتال البحر، ولم يأخذ بتعليمات داي قسنطينة، فلم يُعِدَّ العدة لمقارعتهم، ووجد الداي حسين نفسه محاصراً، وها قد سلَّم المدينة للفرنسيس وعاثوا فيها دماراً ونهباً وسرقة.

الشيخ بوطالب: بالموازاة أردت إخباركم في بداية حديثي بأمر جلل، لكن استرسال الكلام حال دون ذكره.

عبد القادر: ما الأمر يا عمّاه؟

الشيخ بوطالب: إن باي وهران الذي رفض حماية الغزاة في بداية الأمر واستمع لنصيحتك يا حاج محي الدين بعدما حاصرناه في مقرِّه، قد استسلم سريعاً عندما دخل الجنرال «دامرمون» إلى مرفأ وهران، وبدأ الأهالي بالفرار، ونشبت العداوة بين بعض القبائل بعد أن فرَّ موظفو الباي لأخذ مكانهم.

الحاج محي الدين: يا الله... هذا تطور خطير، كيف لأمر كهذا أن يحدث، يجب أن نجد حلاً سريعاً كي لا تتعاظم الأمور.

الشيخ بوطالب: حتى إنهم لم يجدوا صعوبة في اختراق الحصون، وأنزلوا الرايات بكل سهولة واستبدلوها براياتهم.

عبد القادر: ما أُخذ بالقوة يجب أن يسترد بالقوة، أرى أنه من المهم الآن أن نتكاتف جميعاً... كنت أفكر في أمر إن حدث سوف نقول كلمتنا.

الشيخ بوطالب: بما تفكر يا عبد القادر؟

عبد القادر: أن نكلِّف أشخاصاً، ولتكن أنت يا شيخ بوطالب والحاج مصطفى من تديران الأمور، فعلاقاتكما التجارية واسعة في كل المناطق والمدائن، علينا أن نجتمع برؤساء كل القبائل والعشائر وننظم أنفسنا ونكون على أهبة الاستعداد في جميع القرى.

الشيخ بوطالب: كلامك منطقي.

الحاج محي الدين: بوركت يا بني.

الحاج مصطفى: أرى أن أمر السلاح ضروري، والتعجيل به مهم إذا ما تفاقمت الأمور.

عبد القادر: وهو ما أفكر فيه، لكن علينا أن نبدأ الآن بخطوة جمع شمل القبائل وفض الخلافات وتكوين فرق من الأشداء تجوب السهول المجاورة وتضمن الحماية للأهالي الذين تركوا وهران، وفق ما أطلعنا عليه الشيخ بوطالب.

الحاج محي الدين: عظيم هذا الأمر، سأزور الحاج علي بن سعدي في مدينة الجزائر، فما يقوم به هنالك أمر كبير.. لقد بلغني أنه بدأ في تنبيه الناس من جميع النواحي بما يُدبَّر للجزائر في الخفاء، وقد ذهب لمنطقة البربر(1) طالباً منهم الاستعداد والتجنيد وضرورة إعداد الناس للكفاح المسلح.

عبد القادر: ولِمَ تريد الذهاب إليه الآن؟

الحاج محي الدين: لغرض الاستشارة واتخاذ كل التدابير الممكنة، فمن شاور الناس يا بنيَّ شاركهم عقولهم.

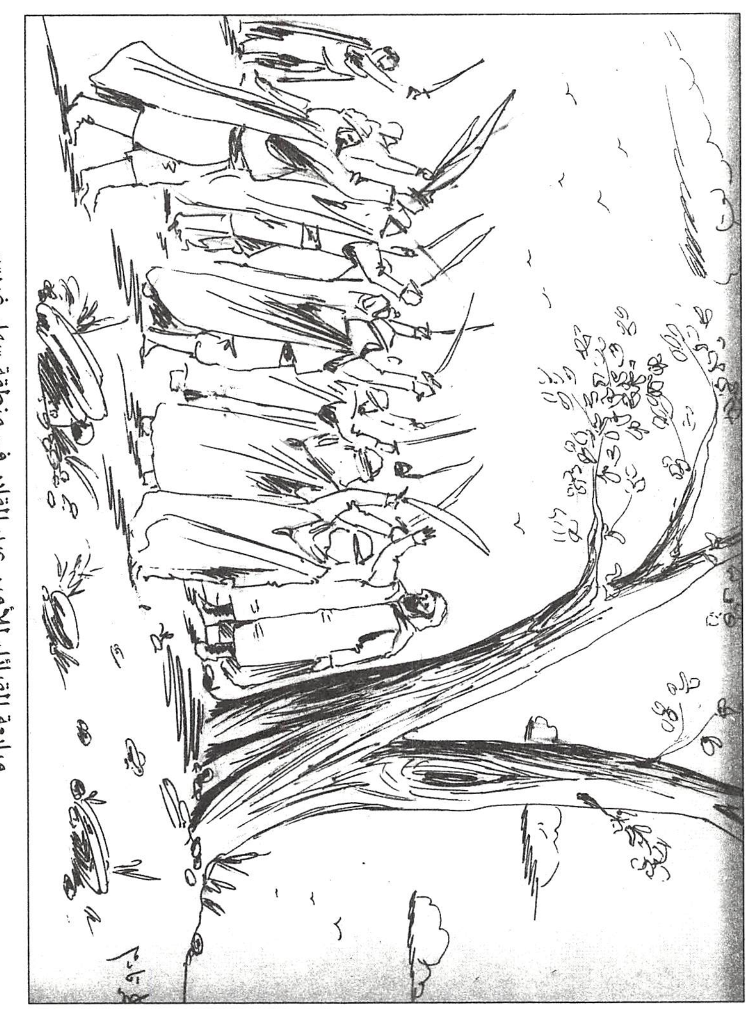
عبد القادر: سأرافقك يا حاج.

الحاج محي الدين: لا يا بنيَّ، تولَّ أنت الأمور هنا، وسيكون معي الشيخ بوطالب والحاج مصطفى وبعض المعاونين، نزور الحاج بن سعدي ونجوب القبائل والحواضر لجمع الشمل... ببركة المولى نستعين.

❊ ❊ ❊

---

(1) البربر: هم الأمازيغ نفسهم، يعيشون في شمال إفريقيا ولهم لهجة محكية خاصة بهم.



مبايعة القبائل للأمير عبد القادر في منطقة سهل غريس

قام الحاج محي الدين رفقة ابنه ومن معه من الأهالي بجميع المبادرات للمِّ شمل القبائل في القطر الوهراني وتوحيدها، لكن المهمة كانت أصعب مما كان يتصور الجميع، واتفقوا على قبلة مراكش في المغرب، ووجهوا البيعة إلى السلطان مولاي عبد الرحمن فلم يكن الأمر أفضل مما كان.

في قرية قيطنة، في بيت الحاج محي الدين 1831م.

عبد القادر.. مسرعاً: يا أماه.. يا أماه... أين والدي؟

الحاجة الزُهرا: عمت صباحاً يا بنيَّ.

عبد القادر: عفواً، صباح الخير يا حاجة، أين الحاج محي الدين؟

الحاجة الزُهرا: ما الأمر يا بني؟ لم أرَك هكذا أبداً من قبل، والدك في بيت الضيافة رفقة عمك الشيخ بوطالب وبعض الضيوف.

عبد القادر: أمر بالغ الخطورة قد أقدم عليه الغزاة.. ادعي لنا يا حاجة أن ينجلي هذا الضيم عن بلدنا.

الحاجة الزُهرا: يا رب اجعل بلدنا هذا آمناً مستقراً من كيد المستعمر، وأسأل الله لكم الحماية.

عبد القادر يدق الباب: السلام عليكم جميعاً، كيف حالك يا عم؟ كيف حالك يا حاج؟

الشيخ بوطالب: نحمد الله تعالى.

الحاج محي الدين: ما الأمر يا بني؟ هدِّئ من روعك.

عبد القادر: يا حاج. . لعل سعينا لإخماد نار القبائل المتناحرة وعدم بعثرة المبادرات والتخفيف من الفوضى ذهب سُدىً.

الحاج محي الدين: ما الذي حدث يا بنيَّ؟ أوضح ما عندك.

عبد القادر: بعدما قرر سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن إرسال ابنه رفقة جيشه وأقام مركز قيادة عامة في تلمسان، وبايعه أهلنا بنو هاشم وبنو عامر وبنو مهاجر، وقدَّمنا له الولاء لتوحيد الصف؛ ها هو يدعو جيشه للانكفاء إلى مراكش، وغادروا جميعاً، وجيش الغزاة بدأ بالتقدم وتعزيز مواقعه.

الشيخ بوطالب: يا لغدر الزمان! كنا نتحدث الآن في أمر القيادة وقلت للحاج محي الدين: واللهِ إن العديد من العلماء كانوا متحفظين على فكرة إلحاق المنطقة بالمملكة المراكشية، ولطالما كان لهم رأي آخر.

عبد القادر: إن أرضنا هذه لا يدافع عنها باشا ولا داي ولا آغا ولا غيرهم، وإن كانوا قد قاتلوا فلهم منا الشكر والثناء على ذلك، ولكن لم يستمروا في نضالهم. . . أرض الأجداد نحن من ندافع عنها ونستردها من أيدي الغزاة الفرنسيس ولا أحد سوانا.

الشيخ بوطالب: صدقت يا ابن أخي، الجولة التي قمنا بها على القبائل في ما مضى أظهرت لي أن بعض مَن ذكرتهم منذ قليل ينتظرون منذ مدة قرار الحاج محي الدين الاجتماع بهم والتجهيز والاستعداد لأي مواجهة، ولكن هنالك من مال للسلم، وهناك من رأى في طلبك تدخُّلاً في أموره الخاصة، فجئت اليوم قاصداً

الحاج محيي الدين للتذكير بهذا الأمر، وها أنت تطلعنا بما آلت إليه الأمور.

عبد القادر: واللهِ إني على عهد والدي الحاج محي الدين في أي أمر يُقدم عليه.. يا عمّاه؛ من معنا فهو مع الجزائر ضد العدو وأطماعه، ومن مال للسلم فسأسعى لإقناعه بضرورة المقاومة ضد من يدنسون أرضنا الآن بأقدامهم وينهبون خيراتنا، أما من أبى واستكبر فأسأل الله لهم الهداية وأن يقذف في قلوبهم حُب البلاد ورفع الذل، فوالله ما هو آت من العدو شر وبلاء.

الحاج محي الدين: رعاك الله يا بني.. أريدكم هكذا دائماً، فالعدو تتعاظم قوته إن تقاعسنا عن واجبنا المقدس... بعدما ذكرت وما جرت به الأمور.. علينا الآن أن نجهز أنفسنا ونُعدَّ لهم ما استطعنا من القوة ونعمل على تحصين الثغور.

مدينة الجزائر 1832م، في مكتب الحاكم العام في الجزائر.

الماريشال دي بورمون: كيف تسير الأمور عقيد كانروبار؟

العقيد كانروبار: على أحسن ما يرام سيدي الحاكم، لقد اتَّبعنا التعليمات، والأهالي مذعورون، وتوسعنا يزداد كل يوم.

الماريشال دي بورمون: عظيم هذا الأمر، سأُعرِّفك على الجنرال كافينياك، من أبرز القادة عندنا، وسيجتمع بك الآن في مكتبه لتحديد المهام.

العقيد كانروبار: أمرك سيدي الماريشال.

* * *

في بيت الحاج محي الدين. . . . .

لآلة خيرة: ما بالك يا أمي لست كما عهدتك. .؟ لطالما كنتِ تبعثين العزيمة فينا وتضفين جوّاً من البهجة والغبطة على هذا البيت. . . أأنتِ بخير؟

الحاجة الزُهرا: آهٍ يا بنيتي، فما عادت الأيام والأحوال كتلك التي كانت. . قلبي يتألم لهذه البلاد، وقلقي على ابني عبد القادر يزداد كل يوم، فمذ ركب صهوة جواده وحمل سيفه يجول بين القبائل ليوحدهم لم أعد أراه، وأخشى عليه كثيراً.

لآلة خيرة: لا خوف على الحاج عبد القادر، فهو فارس فصيح قوي الحجة، والكل يحمل له من المحبة وللحاج محي الدين ما يجعله قائداً يحمل كل الصفات النبيلة، وسعيه هذا لغاية الخير للجميع وضد من غزو أرضنا واحتلوا مدائننا.

الحاجة الزُهرا: لكنه يُرهق نفسه كثيراً. . .

عبد القادر: السلام عليكم، لقد سمعت حديثكما ولم أشأ أن أقاطعكما.

الحاجة الزُهرا. . بلهفة: بنيَّ عبد القادر. . . كيف أنت؟

عبد القادر: أنا بخير يا أماه ودعائك خير حافظ، أما عن التعب فهو فداء لهذه الأرض التي منها خُلقنا ولا مُجير لها إلا نحن، بتوفيق من الله تعالى وعبر سعينا لدفع الخطر عنها، يا أماه. . . .

سلي الليل عني كم شققت أديمه   على ضامر الجنبين معتدل عال
سلي البيد عني والمفاوز والربى   وسهلاً وحَزناً كم طويتُ بترحالي
فما هِمَّتي إلا مقارعة العدا   وهزمي أبطالاً شداداً بأبطالي

الحاجة الزُهرا: سدد الله خطاك يا بني ونصرك على الغزاة الأعداء. .

* * *

مرَّت الأيام وازداد طمع المستعمر نحو التوسع في كل مكان، وتحولت العديد من المدائن في الجزائر إلى نقاط عسكرية فرنسية، في هذا الوقت استجاب الحاج محي الدين لطلب بعض القبائل والوجهاء، ونظمَّ مقاومة لمقارعة الأعداء، لكنه خشي من معاكسة الظروف وعدم توفر شروط النجاح.

منطقة قيطنة، «سهل غريس» الغرب الجزائري «على مقربة من جامع القرية»، «أصوات الناس المجتمعة».

الحاج لعرج: أسمعت يا حاج عبد القادر ما يحدث في مدينة الجزائر ووهران، إنه لأمر مؤسف، لقد نهب الفرنسيس كل السلع والأموال الموجودة، وأكثر من ذلك، أحرقوا محال بعض التجار وخربوا مصادر المياه.

عبد القادر: بئس ما فعلوا، حتى دور العبادة لم تسلم. . . والله لن نغفر لهم على ما اقترفوا من ذنب في حق أرضنا وإخوتنا. . يا حاج جلول كيف هي الأمور عندك؟

الحاج جلول: لقد تم جمع السلاح رفقة الحاج مصطفى كما طلبت. . . انظر؛ ها قد جاء الحاج محي الدين رفقة عمك الشيخ بوطالب.

الحاج محي الدين قادماً ومعه الشيخ بوطالب: السلام عليكم.

عبد القادر والحاج جلول: وعليكم السلام.

الحاج لعرج: أهلاً بكم.

الحاج محي الدين: هل أنت جاهز يا بنيَّ؟

عبد القادر: أنتظر الإشارة يا حاج، ومعي 300 فارس وبعض المشاة، والكل ينتظر هذه اللحظة وعلى أتم الاستعداد.

الشيخ بوطالب: وأنا جئت لإبلاغك أن من طلبت منهم الاستطلاع أفادوا أنه تم استحداث مركز للفرنسيس على أطراف وهران، ويُعدّون لبناء حصن ضخم.

الحاج محي الدين: مسالك وهران وسهولها في متناولي، سوف أدير هذه المعركة، ومهما عجَّت مواقعهم بالجنود أو كانت مشكوكة بالرماة فوالله لنَشُدَّنَّ على هؤلاء الأعداء شدة هاشمية.. تأتي على أرواحهم.

عبد القادر: علينا أن نبيدهم عدداً ولا نبقي منهم أحداً.

الحاج محي الدين: أحسنت... كن هكذا يا حاج عبد القادر في أرض المعركة.. كن أنت وسيفك تصدحان بنفس واحدة، يد تقاتل وكلمة تحث الفرسان على القتال، هيا.. على بركة الله...

* * *

أصوات الخيل... معركة خنق النطاح الأولى... على أطراف وهران 1832م.

الحاج محي الدين قادم على فرسه: يا فرسان، لقد شاهدت مركز العدو من فوق تلك التلة، وأرى أن الهجوم في الساعات الأولى من الليل أفضل من الآن، علينا تنظيم الصفوف.... يا حاج المنور، اصطحب معك 20 فارساً وتجمَّعوا في تلك الربوة إلى أن آذن لكم بالتقدم، أما أنت يا شيخ بوطالب ستكون مع 40 فارساً

خطّاً خلفياً، تدفعون وتناوشون، وأنت يا حاج عبد القادر ستكون معي رفقة ما تبقى من الفرسان في خط الهجوم.

* * *

تمتزج بعد ذلك أصوات المعركة. . الخيل، وقع السيوف، المدفعية. . .

عبد القادر: يا رجال الله، اصبروا وتقدموا وقاتلوا بشدة، إنهم غزاة استباحوا أرضنا ونهبوا رزقنا.

الحاج لعرج: يا مرزوق، يا ولدي مرزوق. . عليك أن تلتحق الآن بعبد القادر فقد ازداد عدد الجنود من حوله. .

مرزوق: إني أرى الشيخ بوطالب اقترب منه، واللهِ إن سيف عبد القادر يقطف الرؤوس كلمح البصر.

الحاج محي الدين: غطّوا جانبكم الخلفي، فلقد تركها الحاج المنور، هيا. . .

عبد القادر: يا رجال الحق، ثبِّتوا أقدامكم، إن الله ينظر إليكم. . . . يا رجال الجزائر قاتلوا بكل قوة وحزم. . .

الشيخ بوطالب: لقد طُعن فرس عبد القادر أكثر من طعنة ومع ذلك يأبى السقوط. يا حاج عبد القادر يا بنيَّ. . . إليك بفرسي، لا تتقدم أكثر. . لا تتقدم.

عبد القادر: والله لا أخشى الموت يا عمّاه. . . . . أبشروا يا أبناء الجزائر، إن العدو يولّي الأدبار، قاتلوا إلى أخر رمق فيكم.

الحاج محي الدين: إنها بشائر النصر يا رجال. . . . اللهم لك الحمد. . .

* * *

استطاع الحاج محي الدين أن يقود انتصاراً عظيماً رفقة ابنه ومن كان معه من الفرسان، لتكون بذلك بداية عهد جديد ومرحلة تاريخية مهمة. . . وعند العودة رفقة الرجال راح عبد القادر ينشد شعراً محتفياً بهذا النصر. . .

لنا سفن بحر الحديث بها جرى   وخاضت، فطاب الوِرد ممن بها ارتوى
و نحن سقينا البيض في كل معرك   دماء العدا والسمر أسعرت الجوى
ألم ترى في خنق النطاح نطاحنا   غداة التقينا كم شجاع لهم لوى
مناقب مختارية، قادرية   تسامت وعباسية مجدها احتوى[1]

الحاج محي الدين: أحسنت يا بنيَّ. . . لقد أبهرتني بصولاتك في أرض المعركة، وأرعبت العدو، واللهِ إني أرى لك شأناً عظيماً في هذا الزمان. .

---

(1) قصيدة قالها عبد القادر في معركة خنق النطاح قرب وهران.
البيض: السيوف. السمر: الرماح. مختارية: يقصد بها النبي الأكرم ﷺ، قادرية: يقصد بها الطريقة القادرية الصوفية، عباسية: بني العباس أعمام النبي الأكرم ﷺ.

مبايعة القبائل والحواضر

لم يقتصر الحال على معركة واحدة أو اثنتين فقط، بل حمل عبد القادر الراية عن والده محي الدين وكبَّد الجيش الفرنسي الخسائر الجسيمة حتى صار اسمه له من الرفعة والقيمة الكثير.

ولقَّبه الناس بالفارس الشجاع، وصيته بين صفوف العدو والأهالي ذاع... لكن الانشقاق في مواقف القبائل حال دون توسيع دائرة المقاومة، وكان أمر الدفاع عن الأرض عند بعضهم لا يُطاع.

* * *

داخل جامع قرية قيطنة في سهل غريس، الغرب الجزائري.

الحاج عبد القادر: السلام عليكم يا حاج، وآدام الله أوقاتك بذكره معمورة؟

الحاج محي الدين: وعليك السلام والإكرام وجعلك أحسن ممن اقتدوا بخير الأنام، لقد كنت في انتظارك.

الحاج عبد القادر: وها أنا معك يا حاج، جمعنا الرحمن في بيته... تفضل يا أبي؟

الحاج محي الدين: أريد أن أسألك يا بنيَّ.. كيف حال المعارك الآن؟ وهل عزيمة فرسانك على ما يرام؟

الحاج عبد القادر: الحمد لله دائماً وأبداً، والشكر لك يا حاج

لتوجيهاتك أثناء المعارك، فلقد كنت نعم القائد. أما عن الفرسان فهم بخير والحمد لله، ولكن. . .

الحاج محي الدين: ولكن ماذا يا بني؟ زعماء بعض القبائل. . . أليس كذلك؟

الحاج عبد القادر: نعم يا حاج، واللهِ إنه لأمر مؤسف أن يميل بعضهم للسلم، فهذا خيارهم، وإن كان يجب إعادة النظر فيه، ولكن المؤسف أكثر أن يدعموا ويساعدوا العدو، فهذا أمر خطير وخيانة كبرى، حتى الوحدات العسكرية الخاصة بالباي حسن تخلَّت عن مراكزها وسلَّمت أمرها للفرنسيس.

الحاج محي الدين: لا حول ولا قوة إلا بالله. . لقد أثبتنا قوتنا في المعارك يا بني، ولكن أمر بعض القبائل يستعصي، فما الحل برأيك إذاً؟

عبد القادر: لقد قمت رفقة الشيخ بوطالب بدعوة العديد من زعماء القبائل والأشراف والأعيان مرة أخرى لتنظيم الصفوف، والذين وافقوا على الحضور أجمعوا أن تكون أنت يا حاج قائداً عاماً لنا في معاركنا ضد الغزاة.

الحاج محي الدين: هي دعوة مباركة يا بني أن نجتمع على أمر واحد في الوقت الذي لا يريد المستعمر أن يكون لدينا عمل منظم في البلاد أبداً، ويسعى أن نبقى في بلاء وضعف وشقاق وحيرة. .

عبد القادر: فعلاً يا حاج.

الحاج محي الدين: أما شأن القيادة فلا حاجة لي بها، وأرضى لنفسي أن أكون ضمن صفوف المقاومين لأجل هذه البلاد لا سلطاناً على الناس، فأنا لست الأقدر لذلك. . . إن دوري الآن هنا

على منبر هذا الجامع وبين الناس واعظاً لهم ومرشداً بالكلمة لأجل الدفاع وتحرير الوطن، فهنالك من هو أولى مني بها وقد خاض المعارك كلها وجابه فوهات المدافع وأخطارها حتى أضحى العدو يحسب له ألف حساب.

الشيخ بوطالب من باب المسجد: يا حاج محي الدين. . . .

الحاج محي الدين: إنه عمك، ما الأمر يا ترى؟ خيراً إن شاء الله.

الشيخ بوطالب يدخل المسجد: بسم الله. . . السلام عليكم.

الحاج محي الدين وعبد القادر: وعليك السلام.

الحاج محي الدين: ما الأمر يا شيخ بوطالب؟

الشيخ بوطالب: مئات الضحايا يا حاج، المئات. . .

حاج عبد القادر: أين ومن؟

الشيخ بوطالب: مدفعية العدو قصفت برج مولاي حسن في مدينة الجزائر، وكان قد تُرك فيه كمية هائلة من البارود، فانفجر المكان وتساقطت الحجارة المشتعلة على الأهالي فاستشهد الكثير منهم.

الحاج محي الدين: إنا لله وإنا إليه راجعون. . . لا حول ولا قوة إلا بالله، لن ننتظر حتى يغزو العدو ديارنا أيضاً.

يا بني أبلغ علماء ووجهاء القبائل أني أنتظر زيارتهم في الزاوية[1].

* * *

(1) الزوايا: هي عبارة عن مدارس دينية شعبية بسيطة تنتشر عبر القطر الجزائري.

سارع عبد القادر رفقة عمه بوطالب إلى إبلاغ العديد من الأعيان والوجهاء وعموم القبائل الموالية للحضور الى الزاوية، ظاناً أن الحديث سوف يقتصر عن الخطط والأساليب المواتية لدحر الغزاة في الهاوية.

في بيت الحاج محي الدين...

الحاج محي الدين: وأخيراً أتت القهوة بعد طول انتظار.

الحاجة الزُهرا: هه... تفضل يا حاج... وددت الاستفسار عن أمر يشغل بالي.

الحاج محي الدين: تفضلي يا أم عبد القادر، ما الذي يشغل بالك يا ترى؟

الحاجة الزُهرا: أمور البلاد والعباد.

الحاج محي الدين: أها... جميل جداً، أصبحت تتحدثين مثلما نتحدث في مجالسنا.

الحاجة الزُهرا: سأقول لك مباشرة من دون إطالة، لقد سمعت أنك اعتذرت عن مبايعة وجهاء واد الحمام وما جاورها من حواضر، وأنك اقترحت ابننا قائداً للمعارك في آخر زيارة لوجهاء غريس..

الحاج محي الدين مقاطعاً: ألم تجد غير عبد القادر؟ هذا ما تودين قوله، يا زوهرا أنا لم أرفض المبايعة تقاعساً مني، والأمر تكليف وليس تشريف، فوالله تزول الدنيا وما فيها لحرية هذه البلاد والنضال من أجلها، ولكن عبد القادر أقدر مني على ذلك، فهو من أحيا نفوس الناس بعد ما حلّ الضعف والهوان، وأنت يا حاجة أترضين أن يبقى عبد القادر معتكفاً فقط على الكتب والمعاجم حبيس

الدار وبطش الغزاة يقترب كل يوم؟؟ أين أنتِ ممن سبقونا ومن ضحّوا بأرواحهم فداء أوطانهم.

الحاجة الزُهرا: لا أعرف... كالعادة تقنعني، لعل عاطفتي غلبت عقلي فانشغل البال عليكما، واللهِ بكلامك هذا قد أذهبت غشاوة عكَّرت صفوي ولازمتني منذ ليلة البارحة، أسأل الله أن يرزقكم النصر الذي وعد به عباده، وأن يحفظ أبناء الوطن فهم أصحاب حق.

الحاج محي الدين: بوركت يا أم الفارس، ولكني أرى أني لم أُذهب الغشاوة عنك فحسب؛ بل أذهبت طعم القهوة أيضاً، فما عادت كما كانت.... أرى أنها تحتاج إلى أن تُسخن مرة أخرى.

* * *

حصن فليب على أطراف منطقة قيطنة في معسكر الغرب الجزائري 1832م.

أصوات الخيل....

المختار قادم على فرسه: يا حاج عبد القادر، يا حاج... السلام عليكم.

الحاج عبد القادر: وعليك السلام.. نراك بيننا اليوم، ما الأمر؟

المختار: إن والدك الحاج محي الدين يريد منك العودة إلى الديار ومن معك من جندك أيضاً.

الحاج عبد القادر: كنت أنوي ذلك فجر الغد فلم يهنأ جيش العدو بتحصين المكان بعد أن ناوشناه كثيراً وانسحب إلى تخوم وهران؛ ولكن ما الأمر؟

المختار: ما على الرسول إلا البلاغ، فقد طلب أن يراك في الحال.

الحاج عبد القادر: للحاج محي الدين السمع والطاعة اذهب أنت الآن وسأنجز أمر الانسحاب رفقة الفرسان بما يقتضي المكان.

* * *

بدأت مراسيم البيعة الأولى بوادي فروحة في سهل غريس، واجتمع أعيان الضواحي المجاورة لقرية واد الحمام تحت شجرة الدردار، ولم تكن البيعة توريثاً، بل كرَّمه عموم الأهالي.. فبادر الحاج محي الدين بعد تلاوة القرآن الكريم بمبايعة عبد القادر ولقَّبه بناصر الدين، ثم تلاه أقرباؤه مبايعين ثم أشراف ورؤساء القبائل وعموم من حضروا، واقترحوا عليه أن يكون سلطاناً... فاختار لقب الأمير..

وبعد أشهر قليلة من البيعة الأولى طلب الأمير عبد القادر من الناس في كل القرى والمدائن التوجه إلى مسجد مدينة مُعسكر لإتمام البيعة العامة، قصد أخذ الولاء والطاعة وتسيير أمور البلاد وجذب القبائل غير المُنصاعة.

* * *

مسجد معسكر الغرب الجزائري، منتصف رمضان 1833م.

أصوات جموع الناس...

الأمير عبد القادر: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الطيب الكريم، وعلى آله وذوي الفضل العظيم، حمداً لمن فضَّل أمة محمد ﷺ وخصَّها بمزايا لم يعطها أحداً من الأنام، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.. قد قبلت بيعتكم، كما أني قبلت هذا المقام مع عدم ميلي إليه، مؤمِّلاً أن

يكون واسطة لجمع كلمة الحق ورفع النزاع والخصام، وحماية البلاد من العدو ودفع ظلمه وإجراء الحق والعدل من القوي إلى الضعيف.

واعلموا أن غايتي القصوى تحرير البلاد واتحاد أتباع الملة المحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله، أدعوكم للكفاح والعمل، وسأرسل الوفود لباقي الأعيان والقبائل التي لم تحضر لإبلاغهم بالبيعة ودعوتهم لها، كي نكون يداً واحدة لمجابهة العدو وإحقاق الحق والعدل... وإلى أهل السيف أقول: كونوا على كلمة سواء في العُسر كما اليُسر.

الحاج لعرج: واللهِ إن كلامك الآن أيها الأمير وحديث الحاج محي الدين في البيعة الأولى لحافز عظيم يشرح القلب، فوالدك حفظه الله سخي بك لنا قائداً، ونحن نقول إننا في حاجة إلى من يقود سفينتنا ويقف في وجه العدو ويذيقه العذاب، ولهذا قد اتفق العام والخاص في إسنادها إليك لتوحيد الصفوف، حياتنا وأملاكنا وكل ما عندنا لك فداء لما حملتنا عليه دفاعاً عن الوطن.

الأمير عبد القادر: بوركت يا حاج... وأنا بدوري لن أدخر جهداً لمقارعة العدو معكم، فالجزائر أرضنا والفرنسيس غزاة لهذه الأرض، وقتالهم ضرورة وواجب مقدس.

* * *

استطاع الأمير أن يشحذ النفوس ويحرك في الناس العزائم ويبدأ أولى خطوات قيادة المعارك ضد المستعمر الغاشم، على الرغم من غدر بعض القبائل التي ارتضت أن تجابه الأمير بالتحدي وتكون يد العون للغزاة في التصدي.

* * *

الأمير عبد القادر: السلام عليك يا حاج.

الحاج محي الدين: وعليك السلام والإكرام... أهلاً بالأمير، متى عقدتم العزم؟

الأمير عبد القادر: الآن.. لم أشأ أن أوقظ أمي ولا أم البنين، وجئتك مودعاً وللدعاء طالباً يا حاج.

الحاج محي الدين: رعاك الله بحفظه يا بنيَّ، إن الله اصطفاك لرفع الظلم عن العباد والبلاد ورفع الضيم عن أمك الكبرى الجزائر... كن لها كما عهدتك مقداماً ومدافعاً، سِر على بركة الله.

الأمير عبد القادر: أشكرك يا حاج... في أمان الله والدي الحبيب.

* * *

على أطراف سهل الحصن الجديد «castra nova»[1]، الغرب الجزائري 1834م.

الأمير عبد القادر: يا رجال، لقد أصبحنا على مقربة من المركز الذي يعسكر فيه العدو، لقد تفقدت المكان عن كثب، عليكم الآن أن تخلدوا للراحة قليلاً كي نذيق المستعمر مرارة الاستيطان.

الحاج بن يحي: وكيف ستجري الأمور يا أمير؟

الأمير عبد القادر: علينا أن ننظم الصفوف، وسأقسم الجند إلى خمس فرق، فرقتان للهجوم وفرقة للدفاع وفرقة تنصب كميناً للعدو تباغته من الخلف، وهنالك أمر آخر، الفرقة الأخيرة مهمتها

---

(1) castra nova: أي الحصن الجديد، وهي مدينة المحمدية حالياً أو باريقو، قامت على أنقاض محمية رومانية اندثرت إثر غزو الوندال في القرن الأول ميلادي.

الاستيلاء على السلاح كي نحارب عدوّنا ولمجابهته بنفس السلاح الذي يملكونه.

الحاج بن يحي: عظيم... والله إننا نفتخر بك قائداً...

الأمير عبد القادر: بل الجزائر تفتخر بنا جميعاً، علينا أن نقدِّم أقصى ما لدينا في ميدان المعركة، هيا ارتاحوا الآن قليلاً وستكون شارة للانطلاق بحوله تعالى بعد قليل.

* * *

مركز للجيش الفرنسي، سهل الهبرة، خط القوافل التجارية على أطراف castra nova.

الضابط فرنسي: سيدي الجنرال... إن الأعين التي تحرس المكان من القبائل تفيد أن هنالك مجموعة من الأهالي تتجمع على حدود سهل الهبرة، يرجح أن يكونوا قطاع طرق أو مجموعة عبد القادر.

الجنرال تريزال: علينا أن نستعد الآن.

الضابط الفرنسي: بطبيعة الحال، أنا أنتظر التأكد من أمرهم ومعرفة من هم.

الجنرال تريزال: لا يجب الانتظار، فإن كانوا هم فقتالهم شديد.. هيا أطلق تحية الاستعداد فوراً.

الضابط الفرنس: أمرك سيدي

تطلق معزوفة الاستعداد الفرنسية....

الضابط الفرنسي: سيدي الجنرال لقد ثبت أنهم جماعة عبد القادر، وعددهم كبير هذه المرة.

الجنرال تريزال: سوف نقضي على هذه المجموعة المشاغبة.

يا جند فرنسا، يا جيش القبائل... قد يفاجئنا عبد القادر ومن معه في أي لحظة، الفيلق الأول من جيش القبائل التي معنا تكون في المقدمة ومهمتها إطلاق النار... أما المدفعية في مكانها، تبدأ عملها عند اقتراب الهجوم علينا، عليهم أن لا يتقدموا أبداً، هيا استعداد..

الضابط الفرنسي: أحسنت صنعاً سيدي الجنرال، سيكون جيش القبائل درعنا الحصين.

الجنرال تريزال: لن أُعرِّض جيشي للخطر؛ دعهم يقتلوا بعضهم بعضاً.

* * *

على أطراف سهل الحصن الجديد «castra nova».

الأمير عبد القادر جالساً... المسبحة بين يديه ويتمتم: الحمد لله ولا اله إلا الله، الحمد لله ولا اله إلا الله.

بن تهامي: سيدي الأمير... ننتظر الإشارة منك.

الأمير عبد القادر: قبل ذلك، أبلغ بن يحي أن يجعل الرجال على أهبة الاستعداد، وسوف ترافقني الآن لتفقد جيش الغزاة... هيا.

* * *

عودة الأمير بعد تفقد أرض المعركة...

الأمير عبد القادر: يا رجال.. لقد عاودت مراقبة العدو، إنه أجبن من أن يقاتل، فقد احتمى بإخواننا من القبائل التي ارتضت الذل والهوان وباعت الأرض والعرض... مصيرهم مثل مصير الأعداء الفرنسيس من خلفهم..

يا أبطال استعينوا في أنفسكم بذكر الله وشرف الدفاع عن أرضكم وأنتم تقاتلون المستعمر ومن والاهُ...

لا تخيفكم البنادق، فهم المعتدون، هيا إلى الأمام.. هيا يا رجال.

الحاج بن يحي: سنكون كما تعلمنا منك على كلمة رجل واحد ضد هذا المستعمر الجبان.

* * *

موقع المستعمر الفرنسي...

الضابط الفرنسي: سيدي الجنرال لقد بلغني أنهم قادمون، وهم على بُعد مئات الأمتار فقط.

الجنرال تريزال: يا جيش القبائل يا «بن سماعيل» عندما يقتربون، يجب أن يطلق رجالك النار دون توقف.

المدفعية.. استعدوا الآن.. المشاة.. التزموا أماكنكم.

أصوات الخيول تمتزج بأصوات المدافع والبارود..

الأمير عبد القادر: عليكم بهم.... يا بن تهامي انطلق ومن معك وبادر بالهجوم من الخلف.

أحد جنود جيش عبد القادر: يا أمير لقد أصيب الحاج لعرج.

الأمير عبد القادر: أكمل القتال أنت، سوف أتولى أمره.

الحاج لعرج: سيدي الأمير.. لا داعي لحملي الآن أخشى عليك من بنادقهم..

الأمير عبد القادر: يا حاج نحن كالجسد الواحد لا يجب أن نترك جرحانا ولا شهداءنا بين أيديهم.

صوت المعركة، أصوات القذائف، الخيول، السيوف..

جندي فرنسي: سيدي.... لقد وقع علينا هجوم من الخلف

وأبادوا الكثير وأخذوا الأسلحة واشتد الخناق على المدفعية فسكت لهيبها . . ماذا نفعل سيدي الجنرال؟

الجنرال تريزال: دع جيش القبائل يقاتل، هيا، انسحاب، أبلغ جندنا بضرورة الانسحاب

* * *

نهاية المعركة. . . . .

بوحميدي: يا سيدي الأمير . . رأيتهم بعيني؟ إنهم ينسحبون . . لقد انسحبوا

الأمير عبد القادر: لك الحمد يا رب، يا فرسان، الغنائم لبيت المال، والأسرى من بني جلدتكم ومن القبائل لا تُهان. . .

بوحميدي: أمرك مولاي الأمير . . إننا نَرِد من خُططك النصر، فهل لنا أن نَرِد من الشعر الآن ما يُثلج القلوب أيضاً.

الأمير عبد القادر: لك ذلك. . فاسمعوا وعوا يا جيش الفرنسيس ما أقول . .

ما كل من يعلو الجواد بفارس	إذا ثار نقع الحرب والجو مُغبر
فيحمي ذماراً يوم لاذوا حفيظة	وكل حماة الحي من خوفهم فرّوا
ونادى ضعيف الحي من ذا يغيثني	أما من غيور خانني الصبر والدهر
وما كل سيف ذو الفقار بحده	ولا كل كرار علينا إذا كروا

* * *

لم يتوقف الصراع بين الجيش الفرنسي والأمير عبد القادر، فالعدو يسعى لتوسيع نفوذه، أما الأمير عبد القادر فكان يعمل على إيقاف حركة المستعمر وتوسُّع حدوده، ويسعى لبناء دولة قادرة على

طرد الغزاة من المدن الساحلية التي يحتلها وضمّها لحاضرته التي يحكمها.

الحاج بن يحي: يا أمير عبد القادر.

الأمير عبد القادر: أهلاً بك يا حاج، ما الأمر؟

الحاج بن يحي: أردت إبلاغك سيدي الأمير أن كمية السلاح قد وصلت من كل الاتجاهات، من مراكش ومن الصحراء والكثير من الأماكن، فالعديد استجاب لنداء بيع أي بندقية يملكها أو يستبدلها بمقدار من الحنطة والطعام.

الأمير عبد القادر: عظيم... عظيم جداً

الحاج بن يحي: أما الكبريت والبارود فلقد حصلنا على كمية قليلة، فهنالك صعوبة لتمريره.. علينا فك مسالك الموانئ.



قتال الأمير عبد القادر في معركة سهل الحصن الجديد «castra nova»

الأمير عبد القادر: وهذا ما يجب أن نُقدم عليه، لا تنسَ أننا نستطيع تصنيع البارود وتصنيع حتى المدافع والأسلحة إذا ما استقدمانا خبراء وعارفين بذلك، فلكل مجتهد نصيب.. المهم أن تبقى العزائم قوية وأن لا نيأس أبداً أمام هذا المستعمر الذي جاء للسيطرة علينا واستعبادنا على أرضنا ونهب خيراتنا.

الحاج بن يحي: أدامك الله قائداً ومدبراً لأمور الوطن دائماً.

* * *

أمام ضغط جيش الأمير عبد القادر وحنكته في الحروب وإحراز العديد من الانتصارات، سعى دي ميشال الحاكم الفرنسي بوهران لأجل عقد هدنة مع الأمير، ولم يجد إلا الحيلة والخداع لبلوغ ذلك.

مكتب الحاكم الفرنسي في وهران قضاء بايلك الغرب[1] سابقاً.

الحاكم دي ميشال: انتظرك منذ الصباح.

الجنرال تريزل: وها أنا قد وصلت جنرال دي ميشال، وللأسف أحمل أخباراً غير سارة، فلقد أحكم عبد القادر ومن معه جميع منافذ وهران، بما في ذلك ميناء أرزيو وما يمثله من مصدر مهم للغذاء والسلاح.

الحاكم دي ميشال: أعلم ذلك.. ليس هذا ما أنتظرك لأجله... فكل هذه الأخبار المشؤومة أعرفها يا جنرال تريزل ولم نستطع إلى حدِّ الآن أن نوقف غاراته ومناوشاته، الناس يهرعون له قصد الانضمام إليه، وهذا يعيق توسعنا نحو باقي المناطق.

---

(1) قضاء البايلك: هو مركز الحاكم العثماني ومقر الإقامة في الفترة العثمانية.

الجنرال تريزل: وما العمل إذاً؟

الحاكم دي ميشال: علينا استعادة ساحل ارزيو وميناءها وبعد ذلك أفكر في خطة إن نجحت أكون قد ألقيت القبض عليه. .

الجنرال تريزل: فيمَ تفكر يا سيدي؟

الحاكم دي ميشال: لدينا بعض القبائل يحبون عرض خدماتهم ويحملون العداء الكبير لعبد القادر، أليس كذلك؟

الجنرال تريزل: أجل، وقد قاتلوا معنا. . ولكن ما الجديد في ذلك؟

الحاكم دي ميشال: سوف يكون هؤلاء الطُعم كي أصل إلى عبد القادر وأوقف زحفه وتوسعه على حسابنا.

الجنرال تريزل: يجب أن لا نصل إليه فقط، بل علينا أن نقضي عليه أيضاً. . كم أريد ذلك وأنتظر الثأر منه.

* * *

عمد الجنرال دي ميشال إلى إرسال حلفائه من بعض القبائل الذين كانوا يقدِّمون له المعونة، وكلَّفهم بمهمة تزويد الجيش الفرنسي بالمؤونة، فألقى رجال الأمير عبد القادر القبض عليهم ومن معهم، فسُرَّ دي ميشال أيما سرور، وكانوا طُعماً للاتصال بالأمير ومحادثته بشأن اقتراح الهدنة معه، قصد كبح اندفاعه وعدم تحقيق أهدافه.

* * *

الجزائر، قرية قيطنة، سهل غريس، الغرب الجزائري.

في بيت الحاج محي الدين للتشاور في أمر معاهدة دي ميشال.

الحاج محي الدين: بمَ تفكر يا بني عبد القادر؟

الأمير عبد القادر: يشغلني أمران، صحتك التي تراوح مكانها كل لحظة وساعة، وأمر الهدنة التي طلبها جنرال الغزاة دي ميشال.

الحاج محي الدين: الصحة فانية والعمر ينقضي يا بنيَّ، وأحمد الله كثيراً أني أراك مثلما تمنيت أن تكون، فارساً مثابراً وثائراً تسعى ومن معك لطرد المستعمر رغم كل الظروف.. ها قد جاء عمك بوطالب.

الشيخ بوطالب: السلام عليكم، أرى الجميع مجتمعون، كيف هي صحتك يا أخي محي الدين، أبلغني بعض الرجال أنكم طلبتموني على عجل.. ما الأمر؟

الحاج محي الدين: أنا بخير.. اجلس يا شيخ بوطالب فهذا مجلس شورى ضم جميع الأعيان للحديث في أمر مهم سيخبرنا به الأمير عبد القادر، تفضل يا بنيَّ.

الأمير عبد القادر: بسم الله.. يا رجال علينا التعاون للوصول إلى سبيل الخير وتحقيق النصر على الأعداء، جمعنا المبارك هذا جاء بعد أن وفقنا المولى عز وجل وكبدنا الغزاة الفرنسيس خسائر في العُدة والعتاد وحاصرناهم، ونسأل الله التوفيق لطردهم من أرضنا...

وقد طلب المدعو دي ميشال الهدنة وضمان حرية التجارة، ونحن في موقع القوة لا الضعف، رفضت بما تقتضيه الظروف الآن الحديث المباشر إليه، فلا حديث مع العدو إلا على أرض المعركة، لكن رأيت العودة لمجلسكم في اتخاذ القرار المناسب، وسيكون فيه الصواب والجواب القاطع.

الحاج بوطالب: خيراً فعلت يا بنيَّ، هؤلاء مراوغون وتجار حرب، نهجهم فرِّق تسد، ونقض الوعود، ولنا في موقعة الداي حسين عبرة.

الحاج بن الشريف: حتى أحمد باي لم يسلم في الشرق، فقد سقطت عنّابة وبعض الحواضر لما اخترقوا مقاومته.

الحاج محي الدين: أنا لي رأي آخر، مثلما قال الأمير.. الهدنة عن قوة ونصر، والعدو نعرف سياساته وغدره، وكنت يا عبد القادر قد قلت أمراً مهماً ذات يوم ودعوت لتأسيس دولة قوية.. لمَ لا نوافق على الهدنة ونرتب أمورنا أكثر ونؤسس جيشاً عتيداً، على أن لا تنام أعيننا ولا تغفل عن هذا العدو؟

الأمير عبد القادر: والله قد أصبت في ما قلت يا حاج، وإن أردتم فلتكن الهدنة لما تقتضي حاجة البلاد والعباد.

الحاج بن الشريف: وهل أعددت له كتاباً لذلك؟

الأمير عبد القادر: ليس بعد، ولكن سأقول له: الحرب سجال ورحاها تدور.. يوم لك ويوم عليك، والأسرى الفرنسيس الأربعة إن أردت التضحية لأجلهم ففدية كل واحد منهم ألف بندقية.

وإن أمراء الأرض وإن وصفوا بالشهامة وعلو النفس لكن لن أطلق سراحهم، فقد اعتدوا، وهم عندي مكرمون، أما من معكم من قبائل الموالين لكم فقد باعوا إيمانهم واحتموا بحماكم وأرى حتى الموت لهم مُخجلاً.. آن الأوان لرحيلكم يا جيش الفرنسيس وإن طال الزمان بكم أنتم وحلفائكم.

الحاج محي الدين: أحسنت يا بنيَّ الأمير، خُطَّ هذا الكتاب، فقد أوجزت الخطاب فأبدعت.

* * *

تم الاتفاق على بنود المعاهدة التي أفضت إلى اعتراف جيش الغزاة بسيطرة الأمير عبد القادر على بعض المناطق الغربية بعد أن أحس المستعمر بصعوبة المهمة في القضاء عليه. . . فتفرغ الأمير للبناء وتحصين ما لديه، قصد عدم اختراق مناطق نفوذه والموالين إليه.

تشييد قلعة تاقدمت، 1835م، على أطرف تيهرت بعد اعتماد أمر الهدنة.

الأمير عبد القادر: حفظكم الله جميعاً يا رجال ورزقكم البركة في سواعدكم، علينا أن نتم العمل قبل انقضاء الشتاء، فكل حجر نضعه هو دلالة على ثباتنا في أرض أبائنا وأجدادنا، يجب أن تعلّموا أبنائكم حب الوطن أيضاً.

الحاج الميلود: فعلاً يا سيدي الأمير، فوالله مشاركتك معنا في البناء تقوي العزائم وتنعش أواصر الإخوة بيننا، والحمد لله معالم القلعة بدأت تظهر واقترب إتمام جميع مرافقها.

الأمير عبد القادر: فعلاً يا حاج الميلود، نشكر الله دائماً على توفيقه، المهم أيضاً هو إتمام ذلك المكان.

الحاج الميلود: كنت أود أن أسألك عن ذلك المكان ماذا تنوي أن تقيم فيه؟

الأمير عبد القادر: هنا بمشيئة الرحمن سوف أقيم أكبر مكتبة، فيها كل المخطوطات والمراجع التي تنير العقول والقلوب معاً.

الحاج الميلود: جميل جداً. . كم سيكون الأمر رائعاً، لقد أدركت عشقك للكتب، حتى في المعارك كنت تحرص أن نجلب ما

غنمنا من الكتب، حتى إنك كنت تكافئ من يأتيك بكتاب وتسر به أكثر مما يُغنم من الأسرى أو السلاح.

الأمير عبد القادر: كل الأمور تكمل بعضها بعضاً، وغنائم الفكر لها من الأهمية الكثير، فقيام الأمم ليس فقط بالسيف والرماح، بل أيضاً عندما يستنير الباطن والعقل بأمهات الكتب ومدارك العلماء، وعلينا أن نحرص في كل مكان ننتقل إليه أن يكون لنا مقدار من المراجع والكتب... سوف أضع صيغة جديدة عنوانها «أنا مسؤول عن الكتاب».

الحاج الميلود: وما فحوى هذه الصيغة؟

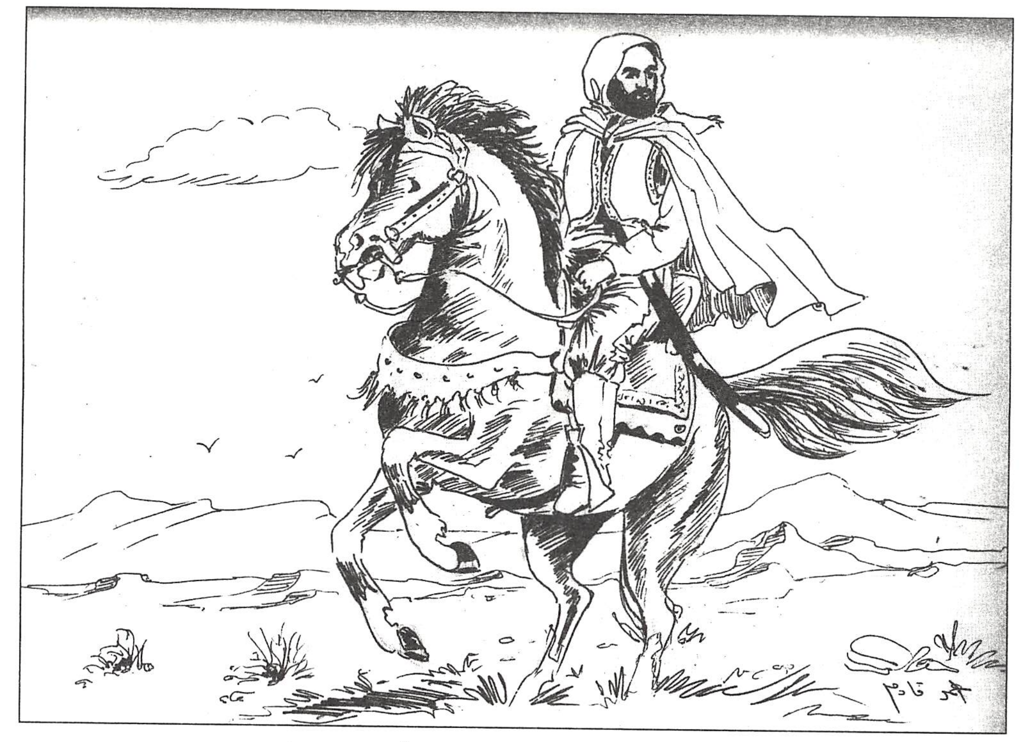
الأمير عبد القادر: القصد منها تهذيب النفس وإصلاح باطن الناس، فيُدان كل من يمزق كتاباً أو يدنسه مهما كانت مشارب الكتاب ومضمونه.

الحاج الميلود: والله بصرك وبصيرتك ترى ما لا نراه سيدي الأمير.

بن تهامي ينزل من على فرسه: سيدي الأمير، يا سيدي الحاج عبد القادر.

الحاج الميلود: إنه بن تهامي قادم إلينا...

الأمير عبد القادر: خيراً إن شاء الله!



أثناء عودة الأمير من قلعة تاقدمت «على أطراف مدينة تيهرت»

بن تهامي: السلام عليكم، جئت لأبلغك سيدي أن والدتك مريضة، وهي متعبة منذ أيام وتريد رؤيتك . .

الأمير عبد القادر: يا الله. . . شكراً لك يا بن تهامي، أسالك اللطف يا رب، أنا ذاهب الآن.

الحاج الميلود: لم يأمرنا بمرافقته، ماذا نفعل؟ هيا بنا يا بن تهامي نلحق به.

بن تهامي: الأمير لا يرضى بخلط أمور الدولة بشؤونه الخاصة، ولكن هيا . . فالمسير طويل، وقد يكون الطريق خطراً.

* * *

تحدَّى الأمير عبد القادر بُعد المسافة وتساقط الثلوج بكثافة، وكان قد صادف عائلة تشكو البرد، فرمى لهم بالبرنس الذي عليه دون أن يلتفت إليهم، بقي هكذا طول الطريق إلى أن وصل إلى حاضرته مُعسكر بعد نصف يوم من المسير.

الأمير عبد القادر: الحمد لله الذي وفقني أن أراكِ يا أماه وأنت في أحسن الأحوال، فمنك أستمد البركة والدعاء الخالص، لم أتوقف عن الدعاء لك وأنا في طريقي إليك.

الحاجة الزُهرا: حماك الله يا بنيَّ وصانك من كل الأعداء وحفظ هذه البلاد من البلاء، لقد اهتمت بي زوجتك خيرة وكل النسوة. . . . وكما ترى صرت بعافية وخير.

الأمير عبد القادر: بوركت يا خيرة، وللنسوة جزيل الشكر، ولكن ما هذه الزينة وما كل هذه السجاجيد، وما هذا المحشو والمغلف بالحرير، وما الذي ترتدينه يا خيرة؟؟

لآلة خيرة: علمنا بقدومك فزيَّنّا المكان لاستقبالك.

الأمير عبد القادر: لا أرضى أن يكون بيتنا هكذا، ولو كان الحاج محي الدين رحمة الله عليه بيننا ما رضي أيضاً بهذا كله، أثواب زوجتي تحيكها من صوف نعاجي وأنا والحاج محي الدين قدس الله مثواه لم نجلس يوماً على المخامل..

لآلة خيرة: ولكن أردت أن أضع الزينة في الدار لأنك قادم إلينا، ولأن أمي الحاجة الزوهرا أصبحت بخير.

الأمير عبد القادر: قرَّةَ عيني خيرة، ليست الزينة والمخامل والحرير هي الخطأ، لكن الناس تتضور جوعاً والأرض محاصيلها تسوء يوماً بعد يوم، والحرب تراوح مكانها، فبين عشية وضحاها تشتد رحاها.. والظروف الآن تقتضي غير ذلك.. عليك أن تبيعي كل ما هو فائض، وهبي بنيَّة الإخلاص ما تجنينه لخزينة المال، ننتفع بذلك يوم نقارع الأنداد والأعداء، فوالله هؤلاء الغزاة لن تتوقف أطماعهم حتى يسلبونا كل شيء نملكه.

لآلة خيرة: حسناً يا حاج، كلامك منطقي وأمرك واجب ومُطاع، وبلدنا ستكون بأغلى زينتها يوم نطرد المستعمر من حيث جاء.

الأمير عبد القادر: أحسنتِ يا خيرة وبوركتِ... فنساء الجزائر لا يختلفن أبداً عنا نحن الفرسان في ميادين القتال.

* * *

ندم أصحاب فكرة الهدنة بعد ما وردهم من أصداء تحكي عن اتساع نفوذ الأمير، فقد جاب كل الأرجاء وأسس جيشاً منظماً يجابه به الأعداء.. فعمدوا لنقضها، وغيَّروا دي ميشال برفيقه تريزال في محاولة لضبط الأجواء.

في بيت الشيخ بوطالب...

الأمير عبد القادر: حيّاك الله يا عمّاه.

الشيخ بوطالب: أهلاً بك يا بني في بيتك، كنت في طريقي إليك يا أمير... يا أم مصطفى... القهوة لابن أخي عبد القادر.

الأمير عبد القادر: بما أنك كنت في طريقك إلي، فأخبرني بما كنت تنوي أن تحدثني فيه؟

الشيخ بوطالب: والله لقد سرني ما رأيته اليوم من شارات وعلامات.

الأمير عبد القادر: أي علامات تقصد؟

الشيخ بوطالب: تلك الذي يضعها جيشك.

الأمير عبد القادر: نعم... هي لنميِّز بها الأدوار والمهام، فعبارة «ضع ثقتك بالله والرسول» لرجال المدفعية، وعبارة «وما رميت ولكن الله رمى» هي للرماة والمشاة، هي أمور تجعل من الفارس أكثر استعداداً لنزال المستعمر.

الشيخ بوطالب: أمر بالغ الروعة، لعل هذه الهدنة ساعدتك كثيراً، وماذا أيضاً؟

الأمير عبد القادر: الحمد لله فقد ركزت الجهود كلها لبناء الجيش، فهو عماد البلاد وسبيل النصر، فقد عملنا على استخراج الرصاص من الجبال، وكان الأمر شاقاً، وأقمت مصنعاً للمدافع على أطراف تلمسان يديره أحد الفارين الأسبان من مراكش، ونصنع البارود في المدية. وإن وفقنا المولى تعالى سيكون مصنع آخر للسلاح في مليانة، الحق يقال، الحاج محمد بن علال هنالك نعم الخليفة، ونقوم بتأسيس مدينة في تاقدمت على أنقاض تيهارت الرستمية.

الشيخ بوطالب: وفقك الله يا بني، وكما كان يوصيك الحاج محي الدين رحمة الله عليه دائماً: يجب أن لا نغفل أبداً عن العدو فأطماعه لا تقف عند أي حد.. الآن جاء دورك لتقول لي ما الأمر الذي جئتني من أجله؟

الأمير عبد القادر: يا عماه أريد معرفة سبب تمرد بعض القبائل ودعمها للعدو والقتال معه، وها هي الآن تحت حماية الجنرال تريزال.... والله قد طفح الكيل.

الشيخ بوطالب: بئس القبائل هم... فلقد جلبوا العار لمن يحمل اسمهم حتى وإن كان يختلف معهم، يا بني حب المال وتاريخهم السيئ أثناء حكم الفاسدين من قبل شجعهم على هذا، فالمخزن وبعض زعماء القبائل الفاسدين استنزفوا الناس بالضرائب وسرقوا أموالهم، وها هم الآن يزوِّدون الفرنسيس بكل شاردة وواردة، وقاتلوا معهم في معاركنا السابقة.

الأمير عبد القادر: لقد أصبحوا يشكلون عبئاً كبيراً وإهداراً للوقت ولخططنا العسكرية التي تهدف لدحر العدو، سوف أنظر في أمرهم بما يقتضيه الشرع.

الشيخ بوطالب: أرى في الأمر عودة للقتال مع الفرنسيس.

الأمير عبد القادر: نحن دائماً يا عماه على أهبة الاستعداد للذود عن هذه الأرض، واطمح أن تعم المقاومة كل أرجاء البلاد، أريد أن أرى الكل يقاوم بما يستطيع.

الشيخ بوطالب: إن شاء الله سيكون ذلك وإن طال الزمان، فطباع أبناء هذه الأرض لا ترضى الذل، وإن خان بعض الناس فهذا لضعف في أنفسهم.. وفِّقت يا بنيَّ، وكن للمستعمر دائماً بالمرصاد.

* * *

سعى الجنرال تريزال إلى عدم تضيع الفرصة بعد توليته حاكماً على وهران. . . فقاد آلافاً من المقاتلين لخرق المعاهدة في الميدان، وكان ما كان، ولم يكن يعرف أن ما ينتظر جيشه لم يكن في الحسبان.

بوحميدي: السلام عليكم مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: وعليك السلام أيها القائد. . كيف هي أحوال تلمسان؟

بوحميدي: مولاي الأمير، لقد أحرق تريزال وجنوده محاصيل الحشم الغرابة، وهم القبيلة الأكثر إخلاصاً ودعماً لنا، وهم الآن على مسيرة يوم ويصلون إلى حاضرتك.

الأمير عبد القادر: مصرّون على نقض العهد، والله إن أي قبيلة يُستهدف قوت أبنائها وإن لم تُعلن الولاء لنا فلهم علينا حق الدفاع والأخذ بحقوقهم وإن خان أولياؤهم، يا حاج بن تهامي جهز الرجال الآن وأنت يا سي[1] بوحميدي عُد حالاً وانضم إلى بن عراش على أطراف غابة مولاي إسماعيل، سوف نحاصرهم هنالك، وعلى الله الاتكال.

* * *

معركة حوش غابة، مولاي إسماعيل، شمال غرب حاضرة مُعسكر 1835م.

الأمير عبد القادر: أيها الفرسان. . هيا إلى سروج خيلكم والكل يمتطي حصانه وكونوا على استقامة واحدة. . . بن تهامي. . . رافق العارفين بأحوال الخيول لتفحصها والتأكد من حدواتها.

---

(1) السي: كلمة شعبية تختصر كلمة السيد، فيقال: السي فلان.

الحاج بن تهامي: حسناً مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: أمر آخر، عليكم أن تعلموا أن الجياد بعلف المساء تكون قوائمها أكثر نشاطاً، لا تختاروا من اقتاتت بعلف الصباح، فهذا سيجرُّ بطونها على الأرض فيتمكن منا الشيطان المتربص بنا... علينا أن نجتازهم بسرعة مطايانا، فخيولهم بدينة وعرباتهم تتأرجح على دروب لا يعرفونها.

بعد المسير...

الحاج بن تهامي: يا لها من جبال... مولاي الأمير استأذنك بالوقوف قليلاً فقد أعجبني المكان.

الأمير عبد القادر: لكم ذلك... لقد تذكرت أمراً، ففي أيام مروري بهذه الأرض حين كنت أقصد وهران لطلب العلم وقفت هنا يومها رفقة الحاج محي الدين رَحِمَهُ الله، وكان قد طلب مني أبياتاً من الشعر تصف روعة ما نرى.

الحاج بن تهامي: وبماذا أجبت؟

الأمير عبد القادر: قلت شعراً ووصفت روعة ما شاهدت، ولكن اليوم أود القول في حضرة الفرسان والأبطال.... فاسمعوا يا فرسان ما أقوال:

لنا في كل مكرمة مجال	ومن فوق السِّماك[1] لنا رجالُ
ركبنا للمكارم كل هول	وخضنا أبحراً ولها زجال
إذا عنها توانى الغير عجزا	فنحن الراحلون لها العجال
رفعنا ثوبنا عن كل لؤم	وأقوالي تصَدِّقها الفعال

---

(1) السماك: بكسر السين، هو نجم عملاق أحمر في الفلك شديد الضوء.

الحاج بن تهامي: ما أبدعك في الشعر.. وما أبدع قتالك في ميادين الوغى مولاي الأمير، كلاهما مبعث للقوة والحمية.

الأمير عبد القادر: هذا من لطفك يا حاج... يا رجال الله إن هذه الأرض وهذه السهول والجبال تحييكم الآن... فنحن أبناؤها ونحن من ندافع عنها، إن كان لكم من أسرى العدو فلا يُهان، وإن كان من بيننا الجرحى والشهداء فلينقل لأبعد مكان... إن العدو استباح أرضنا واستنزف خيراتنا، وهو يتقدم نحونا، فلا نتوانى عن القتال أبداً...

الحاج بن حبيب: مولاي الأمير... بلغني الآن أنهم قد أصبحوا على بُعد أمتار من الغابة.

الأمير عبد القادر: عظيم.. يا رجال... من توكل على الله فهو حسبه، فلننظِّم الصفوف ولنستعن بالله.. العدو على مقربة من هذه الغابة... يا حاج التهامي انطلق الآن رفقة من معك من الجند إلى أحراش غابة مولاي إسماعيل تراقب الجهة الخلفية لجيش الغزاة، إذا ما أراد الانسحاب فاهجم رفقة بو حميدي و بن عراش ومن معكم دون هوادة، فهنالك طريق المشاة، وسيكون عددهم كبير، أما من تبقّى معي فلننقسم إلى قسمين، قسم في المقدمة يحاصر، والقسم الآخر يدافع، فننطلق أفواجاً.... على بركة الله.

* * *

صوت المعارك...

بعد يوم من القتال انتقلت المعركة إلى منطقة المقطع، على تخوم وهران الشرقية، 1835م.

الأمير عبد القادر: يا فرسان.. يا من جئتم من كل الضواحي

علينا أن لا نتوقف.. على الغزاة أن يرجعوا نادمين صاغرين على ما أقدموا عليه...

الجيلالي: سيدي الأمير غاصت مدفعية العدو في المستنقعات، وهي تدور حول نفسها، والجنرال تريزال الأعمى يُجلي قواته عند جبل هميان، وقد توارى عن الأنظار.

الأمير عبد القادر: الحمد لله... لا تُخلوا مواقعكم، ابقوا إلى أن آذن لكم... يا سي جيلالي اذهب أنت ومجموعة بن يحي لتفقد ما تركوه من عتاد، وأنا سوف انطلق رفقة بعض الفرسان من ورائهم لمناوشتهم، فوالله لن يهنأ لهم بال.

* * *

بيت الحاج محي الدين...

الشيخ بوطالب يدق الباب بلهفة: بنيتي خيرة؟ هل من أحد هنا؟ صباح الخير يا بنيتي.

لآلة خيرة: أهلاً بك أبي، عذراً لأني لم أسمعك، كنت رفقة الأولاد والحاجة زوهرا ككل صباح نزور قبر الحاج محيي الدين رَحِمَهُ اللهُ.

الشيخ بوطالب: رحمة الله عليه، يا ليته معنا الآن.

لآلة خيرة: خيراً، ما الأمر يا أبي؟

الشيخ بوطالب: تاريخ يكتبه بنيَّ عبد القادر رفقة جنوده الأبطال.

لآلة خيرة: كيف ذلك؟

الشيخ بوطالب: لن أطيل الوصف، فمنذ أيام حقق الأمير عبد القادر انتصاراً كبيراً، والله لقد فاز فوزاً عظيماً.

لآلة خيرة: عفواً يا أبي، تفضل.. تفضل إلى الداخل.

الشيخ بوطالب: لا عليك، فالخبر أنساني الدخول. . . المهم أنه في منطقة المقطع حيث تمركز الجنرال الفرنسي تريزل مع جيشه لمهاجمة عبد القادر والفرسان الذين معه، فباغتهم عبد القادر من جهة المقطع وحاصرهم أيضاً عند حوش غابة مولاي إسماعيل وأوقع 500 قتيل في صفوفهم.

لآلة خيرة: عظيم هذا.

الشيخ بوطالب: ولم يجد جيش تريزل غير مسلك واحد للهروب مذعورين، فنجحت خطة الأمير عندما أحاط جنده بهم من كل الجهات، وأشعلوا النار ودبَّت الفوضى، فقتلوا وأسروا أغلبهم واستولوا على العتاد والأسلحة والمؤن، وهرب تريزل مع القليل من جنده الناجين من ضربات جيش الأمير وانسحبوا، وأراهن أن هذا الجنرال ذا العين الواحدة سيُعزل من منصبه.

لآلة خيرة: سوف تسعد أمي زوهرا كثيراً اليوم. . .

الشيخ بوطالب: أبلغيها ذلك بنيتي حال عودتها. . . فعلاً سيسرُّها الأمر كثيراً.

* * *

اهتز الرأي العام الفرنسي على وقع النكبات وما حققه الأمير عبد القادر من العديد من الانتصارات، فعمدت حكومة الاستعمار إلى عزل الحاكم العام تريزال وعيَّنت مكانه المارشال بيجو، وأوفدت الجنرال كلوزيل إلى وهران وأمدته بقوات مجهزة بقدرات كبيرة، قصد تجاوز الإخفاقات.

زاوية الحاج محي الدين. . .

الشيخ بوطالب: أهلاً بالأمير عبد القادر.

الأمير عبد القادر: حيّاك الله يا عمّاه. . كيف هي أمور الزاوية؟

الشيخ بوطالب: بخير والحمد لله كما كانت في أيام الحاج محي الدين رحمه الله تعالى، مقصداً للعلم وسماحة الدين.

الأمير عبد القادر: الحمد لله على كل حال، وأعانك الله لما فيه الخير دائماً.

الشيخ بوطالب: كيف هي أحوالك وماذا عن بناء الدولة يا بنيَّ فإني أحب أن أسألك كثيراً عنها؟

الأمير عبد القادر: واللهِ في أفضل الأحوال بفضل مشورتكم والتفاف المخلصين على الخير في هذا الوطن.

الشيخ بوطالب: أنا في مقام والدك الحاج، وكم تمنيت أن يكون معنا وأنت تؤسس أمراً عظيماً يخرج البلاد من ظلمة الغزاة الذين يبيدون كل يوم الزرع والنسل.

الأمير عبد القادر: فعلاً يا عمّاه، ولكن لكل مستعمر نهاية، مهما نكَّل وتجبَّر أو طال الزمان به، هل تعلم يا حاج أن والدي محي الدين هو صاحب الفضل في كل هذا بعد الله تعالى، فلولاه ولولا رحلتي معه في أيام الحج ما استفدت كل هذا القدر.. فقد جعلني فارساً وأنا صغير، وتعمَّد سفري معه، فعاينت برفقته شؤون الأمصار وشاهدت أحوال الناس والرعية وسياسات البلدان في مجابهة أي عدوان... قدس الله مثواه الطاهر.

الشيخ بوطالب: رحمة الله عليه وبارك الله فيك.. فأنت ابن بار لأهلك، أخبرني الآن عن أُسس الدولة هنا.. آمل أن تكون أمورها على ما يرام.

الأمير عبد القادر: واللهِ يا حاج بعد مجلس الشورى الذي يناقش كل كبيرة وصغيرة، وتأسيس الجيش كما تعلم؛ كان من

الضروري حثُّ القبائل الموالية لنا على دفع العشور[1] قصد شراء السلاح وتعميم أمر الكفاح.

الشيخ بوطالب: شيء عظيم، وماذا أيضاً؟

الأمير عبد القادر: واستدعيت مُعاوناً من كل قبيلة يشترط فيه الأخلاق والعدل والعلم والمعرفة لما تقتضيه الأوضاع، وأن لا يغفل الناس عن الزراعة، وخاصة الحنطة، فهي مصدر المعاش لنا وللخيل التي نمتطيها في الحروب، وأمر ضروري آخر...

الشيخ بوطالب: ما هو يا بني؟

الأمير عبد القادر: أن يجول البراح[2] في الأسواق ويسأل الناس عن أي شكوى، حتى إن كانت ضدي أو ضد أي قائد لي أو رئيس مجموعة، فيقوم بتدوينها كي تصل إلى المجلس دون وساطة، وإن تطلَّب الأمر سعي مباشرة في استرداد حقه.

الشيخ بوطالب: أي أن تكون هنالك رقابة شعبية.

الأمير عبد القادر: نعم، هذا صحيح، بالإضافة إلى تشكيل لجان للحدِّ من السرقة وقطاع الطرق، وشكلت أيضاً فرقاً طبية تستقي علمها من طب الأندلس، على القاعدة القديمة «إن كل سلطان لا ينتشر في سلطنته فن الاستشفاء يعتبر عاصياً للخالق»... هذه بإيجاز معالم الدولة التي نسعى بوحدتنا أن نبنيها، فهي الركيزة والأساس لدحر المستعمر.

الشيخ بوطالب: كم نفتخر بك قائداً وأميراً ومعلماً، سدد الله

---

(1) أموال العشور: وهي أشبه بالجمارك والضرائب على التجار في عصرنا.

(2) البراح: أو القوال هي شخصية شعبية تجوب الأسواق قصد الإعلان عن أمر ما، أو حكاية أخبار الأولين ونوادرهم.

خطاك يا بني وجعلك سبباً في رفع البلاء الذي حل بهذه الأرض. . .
كنت أود أن أحدثك في موضوع آخر يا عبد القادر بما أنني في مقام والدك.

الأمير عبد القادر: قل يا حاج.

الشيخ بوطالب: لقد بلغني أن أهل بيتك أرادوا رؤيتك بعد طول غياب في أرض المعارك وانشغالك بأمور الدولة، فقلت لبنيتي خيرة عليك أن تفتخري بما يفعله الأمير عبد القادر، فهو لا يفكر بنفسه بقدر ما يفكر برفع الغبن عن هذه البلاد.

الأمير عبد القادر: أخجل أمامك يا عمّاه، ولكن أحسنت صنعاً، والله اشتقت لهم جميعاً وكدت أنسى وجوههم. . أذكر يوماً أني مررت من على أطراف الدار وأنا في طريقي للمعركة، وأعلم أنها تريد رؤيتي وأبنائي أيضاً. . وقفت قائلاً في نفسي إني الآن أُزف لهذا الوطن كي يحيا الناس في أمن وعدل دون مستعمر ومحتل. . . .

الشيخ بوطالب: أحسنت يا بني.

الأمير عبد القادر: وبحديثك هذا يا عمّاه، تجول في خاطري بعض أبيات.

الشيخ بوطالب: وأنا أحبك يا بني شاعراً كما أحبك أميراً، وأريد سماع هذه الأبيات. . . هيا أتحفني بما لديك، الأمير عبد القادر:

تسألني أمّ البنين وإنها	لأعلمُ من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربّة الخدرِ أنني أجلّي	همومَ القوم في يوم تجوالي
أدافع عنهم ما يخافون من ردى	فيشكر كلّ الخلق من حُسن أفعالي

الشيخ بوطالب: بوركت والله، إنك أمير ابن أمير. . . كل

مسألة عندك تجد لها الجواب اليقين، قم الآن بزيارتها وزيارة والدتك أيضاً، فهي تريد رؤيتك.

الأمير عبد القادر: أمركم جميعاً مطاع يا عماه.

* * *

بعدما انتشرت ظاهرة التمرد في بعض القبائل وتجسسها لصالح الغزاة، تقاعس بعض الموالين للأمير عن دفع الزكاة وخلافها من أصناف الدعم التي تساهم في تقوية جيش عبد القادر، فاستغل الأمير تجمُّع الأهالي وأعيان القبائل يوم الجمعة وعاتبهم على فعلتهم قبل إقامة الصلاة.

* * *

مسجد عاصمة الأمير عبد القادر، حاضرة مُعسكر.

الأمير عبد القادر: . . . يا سادة، ما أخشاه الآن هو تغلغل الباطل في قلوبكم، فأنتم من دعاني إلى المهمة التي أشغلها الآن، ما أقدم عليه بعض الناس هو خدمة للغزاة من حيث لا يدرون. . . كيف لدولة أن تقوم وتصمد من دون حق الله من الزكاة وما استطعتم من الأموال، فهي عصب النضال والقتال كله. . .

من عارضنا منذ البداية وكان خصماً لنا يساند العدو فهو خائن ونعرفهم جميعاً، ولنا حق قتالهم إذا ما اعتدوا علينا ودعموا الفرنسيس الغزاة في زحفهم. . . أما أنتم فبدعم أموالكم بما استطعتم وبهممكم نقوى ونحقق العدل والنصر معاً. . فوالله ليس لي أو لأهلي مثقال ذرة من أموالكم. .

أحد شيوخ القبائل: استأذنك الحديث مولاي الأمير. . واللهِ إننا نُقَبِّل يدك ونشد أزرك، وإن أموالنا وما نملك كما عاهدناك من قبل فداء للنصر، . . . . فما حل في أنفسنا هو كيد الشيطان، أراد الفرقة فحسب، وصرف أنظارنا عن العدو.

الأمير عبد القادر: بوركت يا شيخ هذا ما عهدتكم عليه دائماً. . . الحرب هي مع الغزاة الفرنسيس ومع من يواليهم من ضعفاء الإيمان. . . نسأل الله لهم الهداية. . . . عباد الله، إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين امنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً. . . اللهم بارك في جمعنا هذا ولا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا محروماً إلا رزقته، ولا حاجة من حوائج الدنيا هي لنا خير ولك رضى إلا قضيتها لنا، اللهم إننا نحن جندك وأبناء خاصتك المصطفين، فارزقنا النصر المبين، وأعنا على من عادانا لدحر المستعمر اللعين. . برحمتك يا أرحم الراحمين.

وقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

* * *

مُعسكر عاصمة حاضرة الأمير. . .

الجيلالي: شيخ بوطالب. . . يا شيخ بوطالب.

الشيخ بوطالب: أهلاً يا بني، من أنت وماذا تريد؟

الجيلالي: السلام عليكم، أنا مَن عيَّنه الأمير عبد القادر رفقة مجموعة نترصد جيش العدو في ضواحي وهران، وجئته بخبر بالغ الخطورة، سألت عنه في بيته فلم أجده، فقصدت الزاوية لكني لم أجده، وها أنا بين يديك الآن.

الشيخ بوطالب: أهلاً بك، أخبرني بالأمر سوف أنقله للأمير في الحال.

موقع للتدريب الحربي لجيش الأمير.

الشيخ بوطالب: أين الأمير؟

أحد الجنود: إنه في تلك الخيمة رفقة بن تهامي وبعض الرجال.

الأمير عبد القادر يتحدث لرفقائه: وعلينا أن نعتمد على هذا الأمر من اليوم فصاعداً..

الشيخ بوطالب: السلام عليكم.

الأمير عبد القادر: وعليك السلام، أهلاً بك يا عمّاه... ما الأمر؟

الشيخ بوطالب: أخبار سيئة أيها أمير، لقد سقطت مستغانم في يد المارشال بيجو، والآن الجنرال كلوزيل يحضِّر لهجوم مباغت على حاضرتك مُعسكر.

الأمير عبد القادر: من أخبرك بكل هذا؟

بن تهامي: قد تكون أكذوبة يهدف الغزاة منها نشر الذعر وتحسين صورته أمام شعبه بعد نكسته وإخفاقاته.

الشيخ بوطالب: لا يا بني.. إنه مبعوث الأمير، واحد ممن وكَّلهم لمراقبة تحركات العدو، واسمه الجيلالي.

الأمير عبد القادر: نعم إنه من خيرة جندنا ويقاتل معنا، ما توقعته وحدثتكم به يحدث الآن، سوف ننازلهم بقوة وحزم.... علينا أن ننظر في الأمر على وجه السرعة.

* * *

أعد الجنرال كلوزيل العُدة متجها إلى عاصمة الأمير عبد القادر مُعسكر وهو يردد بين صفوف جيشه أنه قد عزم على الانتقام، واتخذ القرار أن يقصيه عن دار ملكه ويحقق الانتصار ويحدث الشقاق والفرقة بين الموالين له وأتباعه من جنده والأنصار.

حاضرة الأمير عبد القادر مُعسكر.

الحاج اللعربي: يا سيدي.

الأمير عبد القادر: نعم يا حاج؟

الحاج اللعربي: لقد بلغني أن العدو يقترب منا بجيش كبير، ولقد غادر وهران منذ ليلة البارحة.

الأمير عبد القادر: سوف نردهم مقهورين بإذن الله؛ كم من الرجال جاهزون يا حاج؟

الحاج اللعربي: فرقتي تضم قرابة 4000 فارس، أما بن تهامي فمعه فرقة تضم 1000 فارس، والباقون من المشاة وهم خط الدفاع.

الأمير عبد القادر: عظيم، بلِّغ كل قائد أن ينطلق رفقة سريته ويخترق ما بين صفوف جيوشهم كلما تباعدت، وسأقود رفقة بن تهامي الجهة الشرقية لأمر المناوشة.

الحاج اللعربي: وهو كذلك سيدي الأمير.

على تخوم وهران الجنوبية... صوت أقدام الخيل..

الحاج اللعربي: يا أمير عبد القادر، يا أمير.

الأمير عبد القادر: نعم يا حاج، ما بك يا رجل؟

الحاج اللعربي: جيش كلوزيل تعمَّد ضم الصفوف، لقد أدرك خطتنا ولا يمكن بأي شكل من الأشكال اختراقه.. لكن الرجال تقاتل بشدة وأوقعنا العديد في صفوفهم.

الأمير عبد القادر: أعرف أنه أشد دهاء وخُبثاً، ولكن لن يستطيع إدراكنا، أبلغ السرية التي تحت إمرتك ضرورة الانسحاب نحو الشرق.

الحاج اللعربي: ولكننا نقاتل ببسالة.

الحاج المرزوق: لِمَ يا أمير؟. . . لم نتعود على الانسحاب.

الأمير عبد القادر: افعل ما آمرك به، بلِّغهم بالانسحاب نحو الشرق، حاج مرزوق. . انطلق الآن إلى حاضرة الدولة مُعسكر، وبلِّغ الأهالي بضرورة مغادرة المدينة فوراً، وأن يحملوا فقط خفاف متاعهم.

الحاج مرزوق: ولكن. . . إلى أين؟

الأمير عبد القادر: هيا إني آمرك الآن، إن جيشهم أكثر عدداً ولا أريد أن يحاصر رجالنا في مُعسكر، فقد اقتربوا كثيراً ونحن نتراجع للخلف، وعندما نحاصَر سوف نُؤخذ بلمح البصر ونقع أسرى. . . سأكمل أمر المناوشة رفقة الرجال لتعطيلهم، هيا انطلق الآن، لا تتأخر. . . . أبلغ الأهالي أن يسيروا نحو قلعة تاقدمت ورافقوهم إلى هناك.

* * *

وصل الحاج مرزوق إلى حاضرة مُعسكر وناشد الأهالي ضرورة التعجيل بالإخلاء والتوجه شرقاً دون إبطاء، تحديداً إلى قلعة تاقدمت والتي أسسها الأمير قصد الإجلاء، ولكي تكون المعقل البديل في حال مهاجمة الغزاة الأعداء.

صوت المعركة. . .

الأمير عبد القادر: أما زلت هنا يا حاج؟

الحاج الميلود: بأمرك يا سيدي الأمير، فقد أمرت الجند بالانسحاب نحو تاقدمت، وبقيت رفقة ثلة نناوش الجهة المقابلة لك.

الأمير عبد القادر: أحسنت صنعاً، لقد أوقعنا في جيشيهم

الكثير من الإصابات، وانسحابي تحكمت به المقادير، وإن كنت قد توقعته، هيا بنا الآن نحو تاقدمت نتفقد أمر الأهالي.

قلعة تاقدمت على أطرف تيهرت، 1836م.

الشيخ بوطالب: لِمَ أنتم خارج الدار؟... أعتقد أنكِ تنتظرين عبد القادر... هدِّئي من روعك يا حاجة زوهرا وادعي له بالحفظ والسلامة.. لا تقلقي فهو فارس لا يُشَقُّ له غبار.

لآلة خيرة: واللهِ يا أبي لقد جفَّ حلقي من كثرة ما تحدثت إليها بهذا.. لكن من دون جدوى، وأصرت على انتظاره هنا.

الشيخ بوطالب: أبشري.. انظري ها قد عاد الأمير.

الحاجة الزهرا: الحمد لله.

الأمير عبد القادر: السلام عليكم.

الشيخ بوطالب: وعليكم السلام يا بني.

الحاجة الزهرا: ولدي عبد القادر... لقد اشتد قلقي عليك لمّا طال غيابك وكل جندك قد عادوا؟

الأمير عبد القادر: يا أماه قائد البلاد وأميرها يخطط ويتقدم وينظم الصفوف ويكون آخر العائدين إن بقي في حياته بقية.

الشيخ بوطالب: أخبرها يا بني، فوالله أنا وزوجتك ما ادخرنا جُهداً لإقناعها.. لكن دون جدوى.

الأمير عبد القادر: يا أماه أتتذكرين ما ورد على لسانك يوماً عن معدن الرجال.. لقد قلتِ إن الإنسان مكون من حرير وحديد، فإن تعوّد على الترف والرخاء سيطر فيه الحرير ولم يعد يستطع فعل شيء، وبالعكس إن حمَّل النفس المشاق واتكل على الله، سادت فيه إرادة الحديد وبقي قابلاً لأداء المهام الكبرى، وها أنا الآن بفضله

تعالى في صف الحديد كي نضرب الغزاة أيضاً بيد من حديد. . . . أطال الله في عمرك يا أماه.

الحاجة زهرا: بوركت يا بني وحفظك الله، سأعد الطعام، هيا بنا يا خيرة.

الشيخ بوطالب: هذا أحسن ما تفعلانه الآن.

* * *

مقر الأمير عبد القادر في حاضرة تاقدمت.

الأمير عبد القادر: لله الحمد على ما جرى به قضاؤه، لقد تمكنا بأقل الخسائر أن نقطع الطريق على خطة ذاك الجنرال اللعين.

الشيخ بوطالب: لَطَفَ الله بعباده يا بني وألهمك التوفيق في تجنيب رجالك والأهالي سوء المنقلب. . . تتحدث الأخبار. أن العدو أيضاً عانى الأمرَّين وخسر ما خسر من الأرواح والعتاد، ولما دخل مُعسكر وجدها خالية على عروشها.

الحاج لعرج: والله قد أحسنت صنعاً يا أمير، فلم يجدوا شيئاً وهم يتأهبون للمغادرة، أو ربما قد غادروا.

الأمير عبد القادر: المغادرة؟

الحاج لعرج: نعم ولكن. .

الأمير عبد القادر: ولكن ماذا؟

الحاج لعرج: لقد أحرقوا كل ما وجدوه أمامهم، وساعدهم في ذلك من عادوك دائماً من القبائل ومن اليهود أيضاً، فقد أضرموا النار في كل شيء.

الشيخ بوطالب: لكن رحمة الله أيضاً وسعت كل شيء، فالمطر الذي نزل أطفأ نار الحقد والتخريب معاً.

الأمير عبد القادر: الحمد لله، أمور البناء تعمر سريعاً، لكن أمور القلوب تحتاج إلى وقت.

الشيخ بوطالب: أحسنت يا بنيَّ.. عليك أن تُنزل أشد العقاب على هؤلاء الخونة.

الأمير عبد القادر: سوف ننظر في أمرهم لاحقاً، والآن يجب أن أتفقد أمور الرعية في المدينة ونتحرى أخبار العدو، فإن غادر سوف نعود جميعاً.

* * *

أصوات الناس في سوق تاقدمت...

جيلالي: ما شاء الله، ما كل هذه المدينة يا سيدي الأمير، إنها تحوي جميع المرافق.

الأمير عبد القادر: لم نتممها بعد، والحمد لله بتضافر جهود وسواعد أبنائها الشرفاء وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

جيلالي: سبحان الله، وكأنك كنت تستشعر خطر زحف العدو.

الأمير عبد القادر: يا سي جيلالي إن الغزاة إذا حلّوا بأي أرض عاثوا فيها فساداً، ولا يرضيهم القليل، فهم قراصنة وشرٌّ مطلق لا يصدهم إلا الكفاح والتضحية كي يعيش أبناؤنا وأحفادنا وأهلونا بأمن وسلام.

الجيلالي: والله يا أمير مذ حللت قائداً جمعتنا على العدل والحق... الكل يتناقل بطولاتك، حتى الأعداء تحدثوا عن الأمن والآمان في حاضرتك.

الأمير عبد القادر: سبيل الخير أشد الأمور وضوحاً، ورب

العباد يبارك فيه، إذا ما صدقت النوايا وكان هناك فكر جمعي مخلص يهدف لتعمم الخير.... الأمور كلها في صلاح باطن الإنسان واستقامة سريرته.. وهذه المدينة نموذجاً لوحدة تجمع الكل، وأعتزم تأسيس عاصمة متنقلة إلى أن نحقق نصراً بتكاتف الجميع وندحر المستعمر الفرنسي عن كل شبر من أرض بلادنا المباركة.

* * *

بعد فترة بسيطة قضاها الأمير في حاضرته الثانية تاقدمت عاد رفقة الأهالي وخاصته وجنوده إلى عاصمته مُعسكر بثبات، وحثَّ الجميع على تشييد المدينة، فكان لهم ذلك، وأعادوا لها الحياة.

الشيخ بوطالب: الحمد لله، عادت الأمور إلى سابق عهدها، بل إلى الأحسن.

الأمير عبد القادر: هي هكذا أحوال البناء في كل الأمور، عند التحفيز والمثابرة ترى النتائج بسرعة.

الشيخ بوطالب: ولكن ماذا عن الأوغاد الذين حرقوا ونهبوا؟ لم تقتص منهم حتى الآن؟

الأمير عبد القادر: لقد عفوت عنهم وأصدرت بياناً يجال به في الأسواق يبلغ فيه الأهالي بذلك، والنتيجة أنهم اعتذروا أمام كل الأهالي وأعلنوا الولاء... إلا اليهود فقد غادروا مع ركب الفرنسيس.

الشيخ بوطالب: عفوت عنهم.. لماذا يا بني؟ والله لا مكان لهم بيننا هم أيضاً.

الأمير عبد القادر: الحمد لله الذي ألهمني الصواب يا عمّاه،

إن العفو عند المقدرة يغير ما في القلوب، وعدونا يسعى إلى بثِّ الفرقة والشقاق واختراق الصفوف.

الحاج اللعربي: يا حاج عبد القادر.

الأمير عبد القادر: ما الأمر؟

الحاج اللعربي: سيدي الأمير لقد أفادنا أحد الرجال أن الجنرال كلوزيل يتوجه من وهران إلى تلمسان، ويحاول التنكيل وترويع الأهالي هنالك.

الأمير عبد القادر: لن يستطيع ذلك، سنذيقه طعم الهزيمة مثل أسلافه، ونثأر للوطن منه وممن معه... عمّاه مُرْ جمع الأعيان عندك، ابعث من يخبرهم، وأنت يا حاج اجمع أمراء جندنا ونلتقي في الزاوية.

زاوية الحاج محي الدين...

الشيخ بوطالب: تفضلوا.. تفضلوا.

الأمير عبد القادر: السلام عليكم أيها السادة، عهدنا أن يكون والدي الحاج محي الدين قدس الله مثواه بيننا، نسال الله أن يرزقه الرحمة وجزيل الثواب... أما بعد، فقد بلغني أن جيش العدو وعلى رأسه كلوزيل يتوجه إلى تلمسان بمعية المتطوعين والمتواطئين من القبائل، وقد أقامت بعض الجيوش عند حصن المدينة.

الجيلالي: ومنها من أصبح بالمدينة يا سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: وهذا تطور جديد.. يا إخوان، إن العدو لن تتعبه إلا المقاومة والكفاح، فإن عشنا عشنا أحراراً وإن متنا في أرض المعركة استشهدنا أبراراً... المهم أن نبقى على كلمة واحدة... يا حاج بن تهامي... هل الرجال على أتم الاستعداد؟

بن تهامي: نعم سيدي الأمير، وينتظرون الأوامر.

الأمير عبد القادر: خطتنا قبل الانطلاق على نحو نسأل الله التوفيق فيه. . . سوف تكون ثلاث فرق على طول المسير بين وهران وتلمسان، فرقة تناوش وتعطِّل، والثانية تتمركز على تخوم تلمسان الغربية، وأما الثالثة على أطراف وهران كي نسد كل المنافذ، أما أنا والسي الجيلالي وبعض الرجال سنتوجه مباشرة إلى المدينة وهنالك شأن آخر. . . اذهبوا واعدّوا سلاحكم. . . على بركة الله.

أثناء المسير. . . . . .

الجيلالي: كيف تسير الأمور مولاي الأمير؟

الأمير عبد القادر: أرى أن نسلك الطريق الموازية من قمة هذا الجبل، وليس من هنا. . فإن تحرك العدو عكس الرياح ستكون نهايتهم خلف تلك الهضبة. . . يا رجال لننطلق من هنا. . . هيا.

❊ ❊ ❊

بن تهامي: سيدي الأمير. . . . لقد استطاع بوحميدي والرجال أن يحكموا القبضة بين تلمسان ووهران، وجيش العدو أضاع الطريق، وكانوا تحت مرمى الرماة، وكلوزيل فرَّ بصعوبة عبر الوديان إلى وهران.

الأمير عبد القادر: هذا هو المطلوب، إنها أرضنا ونعرف دروبها. . وجهتنا الآن إلى قلعة المشور، فهي مفتاح تلمسان، يجب أن نصل إليها على وجه السرعة ونستفيد من مناوشة بوحميدي لهم.

❊ ❊ ❊

باريس القصر الملكي. . ملك فرنسا لويس فليب وأدولف تير «رئيس الوزراء الفرنسي» 1836.

أدولف تير: سيدي الملك معي رسالة مستعجلة من الجنرال كلوزيل.

الملك لويس فليب: ألا ترى أني مع الضيوف «يلتفت الملك للضيوف». . . المعذرة. . أعطني الرسالة سيد أدولف. .

أدولف تير: تفضل جلالة الملك.

الملك لويس فليب بعد قراءة مضمون الرسالة: من يكون هذا عبد القادر حتى يُبيد جنودنا ويستنجد منه قادتنا ويوقف تقدمنا؟؟ كيف لجنرال يصاب بالهوس والخوف بعد أن كان يدعو لاحتلال شامل للجزائر. . وبعد كل القتل المشروع الذي مارسه هنالك يستنجد الآن. . يجب أن أتخذ إجراء حاسماً.

* * *

وصول الأمير وجنوده إلى أطراف مدينة تلمسان. . .

الأمير عبد القادر: ها قد وصلنا يا رجال، علينا الآن أن نقوم بأمر مهم، سوف نقوم بحفر خندق مقابل هذه الأسوار ونضع كمية البارود التي نحملها، ونستدرج من بالداخل ثم بعد ذلك نضرم النار فيها.

الجيلالي: الحفر والبارود؟ لقد لاحظت المعاول والفؤوس مع الركب، وظننت أنها للقتال. . . بوركت ما أعظم أفكارك يا سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: . . كل مكان وله طريقته وكل موقعة ولها ظروف تحكمها. . الأهم هو الإقدام بكل ما أوتينا من قوة وأن نكون يداً واحدة. . . هيا كلنا سنتعاون على الحفر. . وفرقة أخرى تراقب المكان وتحمي ظهورنا.

* * *

بداية المعركة . . . أصوات المدافع وانفجار البارود .

الجيلالي: لقد أحدث انفجار البارود هلعاً كبيراً في صفوف العدو وتشتت شملهم . . لكنهم يا سيدي الأمير تراجعوا خلف أسوار المدينة .

الأمير عبد القادر: إن خرجوا لن ينجوا من أيدينا ، وإن مكثوا في الداخل بقوا بين أسوارها لا يتحرك منهم أحد، سترابط مجموعة هنا وتحاصرهم . . هيا طوِّقوا المكان بإحكام، فوالله إما أن يموت جندهم جوعاً أو على وقع مقارعة سلاحنا . . . سترافقني يا سي جيلالي رفقة بعض الفرسان إلى ندرومة، فهناك موقع مهم لمراقبة جميع الممرات . . . يا رجال فلتبقَ فرقة هنا على أن يكون عددها كبير تحاصر المدينة . .

* * *

لما لحقت الهزيمة النكراء بالجنرال كلوزيل وأذياله من الجنود، التفت الأمير عبد القادر بصرامة للقبائل المعادية التي تخطت كل الحدود وساعدت عدو البلاد اللدود، فعاقبهم بنيَّة العودة إلى رشدهم والإذعان لأمر الطاعة في أنفسهم، ثم جال فوق صهوة فرسه الأسود واعظاً للناس وداعياً للنصر الكبير المنشود .

ندرومة تخوم تلمسان . . .

بو حميدي: السلام على مولاي الأمير . . الأمور على ما يرام إلى حد الآن .

الأمير عبد القادر: وعليك السلام والإكرام، أريد التفاصيل بعد جولتك حول أطراف مدينة الجزائر .

بو حميدي: للأسف، فقد ضيَّق الفرنسيس المحتلون شرقاً الخناق على قسنطينة بجيوش عتيدة، أما مدينة الجزائر فمناوشة جيشنا تصل إليها وعبرت قواتنا سهل متيجة، وقد تمركزت بعض جيوش كلوزيل في المدينة.

الأمير عبد القادر: المهم أن يتبع الرجال هنالك ما وصيتهم من خطط الكرِّ والفرِّ، فعندما تُرهق العدو يتخلى عن قواعده.

بو حميدي: فعلاً سيدي الأمير، أما المدن القريبة من حاضرتك فقد أنهكها الحصار، وبلغني أن جيش العدو يلجأ إلى أكل القطط، وكافنياك اللعين المحاصر خلف أسوار تلمسان يشتري لمائدته ما يقدر بـ 40 فرنك ليسد جوعه.

الأمير عبد القادر: هذا هو المطلوب، إني أفكر أن أقايض الغزاة بما لدينا من الحبوب والحنطة واللحوم مقابل الحديد والرصاص والكبريت، فنحن بحاجة إليه.

* * *

كان تأثير الحصار الذي طوَّق الغزاة الفرنسيين داخل أسوار تلمسان وأذلَّهم، يحمل من النفع ونقيضه على حد سواء، فاستفاد الأمير من جهة، لكن الخسارة جاءت من جهة أخرى.

الأمير عبد القادر: أهلاً بك يا ابن العم.

بن تهامي: حيَّاك الله مولاي الأمير، لقد تمت أمور المقايضة كما يجب، وتبادلنا الحنطة واللحوم بمواد التصنيع، وحتى ببعض الأسرى، ولقد عزلت حكومة الغزاة كلوزيل بعدما جعلناه يفرّ من أرض المعركة منسحباً؛ لكن هنالك أمر بالغ الأهمية ومدعاة للقلق.

الأمير عبد القادر: أفصح ما الأمر؟

بن تهامي: لقد تسرب الملل في قلوب جندنا المحاصِرين لتلمسان، والموانئ، وغادر العديد مراكزهم وعادوا إلى ديارهم وقلَّ عددهم.

الأمير عبد القادر: وكيف لهذا الأمر أن يحدث دون إطلاعي عليه؟ ومن أمرهم بذلك؟

بن تهامي: البارحة فقط غادر من غادر ومن تلقاء أنفسهم، وها قد وصلت إليك مسرعاً لأنقل لك ما حدث.

الأمير عبد القادر: إنه خطأ جسيم أن نكشف ظهرنا للعدو. . . يجب الإسراع للنظر في الأمر.

* * *

استغل المحاصَرون قلة عدد جيش الأمير عبد القادر وضَعف قوته المرابطة على أسوار تلمسان، فسارع الجنرال بيجو على رأس جيش كبير إلى هنالك وحقق نصراً في ندرومة، كان سببه مغادرة جند الأمير مواقعهم من دون المشورة.

البراح. . . متنقلاً في أسواق مدائن وحواضر نفوذ الأمير:

يا أهل المدائن. . . يا أبناء الجزائر، إن الأمير عبد القادر يدعوكم لواجبكم المقدس في مقاتلة جيوش الفرنسيس وأذنابهم، الحاضر يُعلِم الغائب. . . . يدعوكم الأمير للحاق به في ندرومة والانطلاق أفواجاً إلى تلمسان لمحاصرتها مرة أخرى وتعجيل فتحها. . .

يا أهل المدائن، يا أبناء الجزائر، إن الأمير عبد القادر يدعوكم لواجبكم المقدس. . والسعي لطرد المستعمر.

* * *

مدينة الجزائر مكتب دامرمون الحاكم العام.

الحاكم دامرمون: جنرال بيجو. . . إنك من أذكى جنرالات فرنسا والكل يعوِّل عليك، للأسف أصبحت مهمتنا تحمل جانباً من الصعوبة، ولكن ليست مستحيلة، عبد القادر من أصعب من يحاربنا الآن ويعيق تقدمنا وتحقيق أهدافنا التي جئنا من أجلها، فهو يعرف المسالك على الأرض ويعرف كيف ينظم حركة جيشه في كل الاتجاهات، مهمتك واضحة.

الجنرال بيجو: سيكون في قبضتي سعادة الحاكم دامرمون.

الحاكم دامرمون: آمل ذلك. . لا نريد أن نفرِّط بأهدافنا وكل ما تحمله هذه البلاد من خيرات، ولا نريد أن نفرط بك أيضاً، فإما أن تقضي عليه أو يقضي عليك.

الجنرال بيجو: أرى الحل الأنسب الآن أن أفاوضه ثم استدرجه بعد ذلك.

الحاكم دامرمون: هذا ما يريده جلالة الملك، تفضل الآن.

* * *

التفَّت القبائل مرة أخرى حول الأمير عبد القادر بعد أن بذل جُهداً في تحريك النفوس عند الناس وجعل حمية قتال العدو والدفاع عن الوطن هي الأساس، هذا ما دفع الجنرال بيجو لتوقيع معاهدة جديدة مع الأمير والسعي لخيار التفاوض بعد أن انسدَّ أمامه البديل.

* * *

عاصمة الأمير مُعسكر، الغرب الجزائري، 1837م.

الأمير عبد القادر: أحسنت صنعاً بإلقائك القبض على أهل الريبة والفتنة في حاضرة المدية، آمل أن يُحكم القبضة هنالك أخي سي المصطفى ضد من تسوِّل له نفسه التعامل مع العدو.. وما زالت عيني على تلمسان كي أراها محررة من كل جندهم.

بن تهامي: هذا من واجبنا يا سيدي الأمير، فهي فئة قليلة قد بغت هنالك وتم احتواء الخلل، وبإذنه تعالى سندخل تلمسان يوماً ما فاتحين.

الأمير عبد القادر: إن شاء الله... لقد شاورت الكثيرين، وبصفتك خليفتي هنا في مُعسكر، ما قولك في هذه المعاهدة وأمر الهدنة مرة أخرى مع الفرنسيس.

بن تهامي: القول من بعدك يا سيدي الأمير، فكما كنت تقول دائماً: الهدنة هي فرصة لتوسيع الجيش وجمع الشمل وتنظيم أمور الدولة مجدداً، والتمكين لكسر الجنرال بيجو ومن يساندونه، فقد كثر عددهم.

الأمير عبد القادر: كلامك صحيح.. نسأل الله أن يبعث ما هو خير للوطن وأن لا يتسلل الملل في نفوس المقاتلين والأهالي إذا ما وافقنا على الهدنة.. إذاً على بركة الله؛ سوف نوفد لهم الحاج بوحميدي لمهمة التفاوض... يا سي بوحميدي...

بوحميدي: أمرك سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: الأمر لله تعالى، أنت موفدنا إلى وهران باعتبارك أدرى بأمورها هنالك، اجعل شروطنا شروط نصر، فهذا العدو مراوغ ونعرفه جيداً، وقل لوسيطهم: إن الأمير لا تسوِّغ له

ديانته ولا شرف نفسه أن يفوّت قوماً ولّوه أمورهم في القرى والمدائن والحواضر ولا يرضون بحكم الإفرنج المستعمر، وإن كانوا يريدون إخضاعهم فدون ذلك حرب طويلة ترفع الذلة.

بوحميدي: لن نفرِّط بحق من حقوقنا مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: سِرْ على بركة الله، أما أنت يا حاج بن تهامي كنت تريد إخباري أمراً ما؟

بن تهامي: كنت أود إخبارك أن المارشال كلوزيل بعد خسارته معنا في رشكون والعديد من المناطق على تخوم تلمسان لم يُعزل نهائياً كما قيل، بل أُعطيت له فرصة أخرى بعد كل هذه الهزائم.. وانتقل إلى عنّابة وراح بجيش نحو قسنطينة، فتلقاه القائد علي بن عيسى وقاتله قتالاً شديداً، حتى إنه ترك قتلاه وهرب إلى مدينة الجزائر، وقد عُزل نهائياً هذه المرة، وعُيِّن بدلاً منه الجنرال دامرمون حاكماً على الجزائر.

الأمير عبد القادر: هذا هو حالهم دائماً، يولّون الأدبار ويعزَلون وحكومتهم تعتقد أن غيره أشد وأذكى، مهما أبادوا وقتلوا وحرقوا علينا أن نصمد، ما أخشاه دائماً ليس المستعمر، فهو أجبن من أن يُخشى ولكن القبائل إن ضعفت قلوبها وتفرَّق شملها هُزمنا، وإن بقيت كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً طردنا الغزاة وهم أذلة.

* * *

بعد مفاوضات طويلة نُقلت من وهران إلى مدينة الجزائر، التمس الجنرال بيجو عبر مبعوثيه إلى الأمير عبد القادر أن يجتمع به، فأجابه بالقبول لذلك، وعيَّن الأمير موضعاً للاجتماع وطريقة فريدة تجنب فيها التسرع.

اجتماع الأمير عبد القادر والجنرال بيجو لعقد الهدنة، وادي تافنة[1] مسير نصف يوم، سنة 1837م.

الجيلالي: سيدي الأمير لقد بلغني أن الجنرال بيجو انطلق مصحوباً بستة فرق مشاة وفرق من الخيالة والمدفعية..

الأمير عبد القادر: واللهِ يا سي جيلالي ما يقوي العزيمة دائماً أن الظالم يهاب الموت والغازي مصيره الذل والهوان، فوالله مهما طال أمدهم فهم عن ديارنا لمبعدون... ابعث فرساناً أشداء يلتقون هذا اللعين لإبلاغه أنني سأتأخر لملاقاته، ودعه ينتظر حتى يضجر... هيا.

الجيلالي: وهو كذلك.. لك الطاعة مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: يا حاج بن تهامي.. سوف أمتطي جوادي الأسود على أن تكون الصفوف التي تغادر معي تموج موج البحر وتتناغم عند اقتراب موكبنا منهم، يجب أن نكون كما عهدنا أنفسنا على قدر من القوة حتى نقذف في قلوبهم الرعب.

بن تهامي: عُلم سيدي الأمير.

* * *

وصل الأمير عبد القادر ومن خلفه جيش من الأعيان ودخان البارود يتصاعد عبر الهواء وينقل ريحه المفعمة بالمقاومة في كل الأرجاء، والجند يهتفون بصوت واحد وهم يقولون: يحيا سلطاننا عبد القادر بن محي الدين الحسيني سليل رسول الله.... نصر الله مولانا الأمير.

---

(1) وادي تافنة: أحد أنهار الجزائر الغربية، تحديداً في منطقة تلمسان، وقد سميت المعاهدة باسمه «معاهدة تافنة».

ثم بعث الأمير برسوله الجيلالي إلى الجنرال بيجو الذي كان يقف صامتاً يتأمل المشهد تحت مظلة يحملها أحد مرافقيه.

* * *

صوت الخيل...

الجيلالي مخاطباً الجنرال بيجو: السلام عليكم.. إن سيدي الأمير عبد القادر يطلب من جانبكم التقدم رفقة من تختارهم للحديث.

الجنرال بيجو: حسناً... له ذلك، قل لمسيو عبد القادر انتظره عند تلك التلة القريبة.

* * *

ترجّل الأمير عبد القادر إلى مكان التلة وحوله ستة من الفرسان وهو يمشي غير مبالٍ فزاده الأمر في ذلك هيبة أمام أنظار الجنرال بيجو، وبعدما حيّاه الأمير سارع الجنرال للحديث...

الجنرال بيجو: هل تعلم مسيو عبد القادر أني على هذه الهدنة قد جعلت نفسي كفيلاً لك عند ملك فرنسا المعظم.

فقاطعه الأمير عبد القادر: ماذا تقول؟.. ليس لك خاطر في ذلك، فإن لنا ديناً وأخلاقاً عربية تلزمنا المحافظة على أقوالنا، وإنني لا أُغير قولي أبداً، ولكن إياكم والغدر والخيانة.

الجنرال بيجو: يجب أن ترفع حصارك عن تلمسان وكل المناطق.

الأمير عبد القادر: لا تأخذ الأمور هكذا بالأوامر، ولا يُرفع شيء قبل أن تعترفوا بنفوذنا على العديد من المناطق، وتردَّ إلينا تلمسان كاملة.

الجنرال بيجو: قد يكون لك ذلك إن صادق ملك فرنسا على هذا الأمر.

الأمير عبد القادر: ملك فرنسا مرة أخرى، إذاً ليس لك نفوذ وتود مفاوضتي.. استأذنك بالرحيل.

الجنرال بيجو: لا.. لا.. انتظر مسيو عبد القادر، سيكون الاعتراف بنفوذك على المناطق وتكون تابعياتنا هنالك في حمايتك.

الأمير عبد القادر: لهم الأمان في ذلك، إذا لم يقدموا على أمر ضدنا.

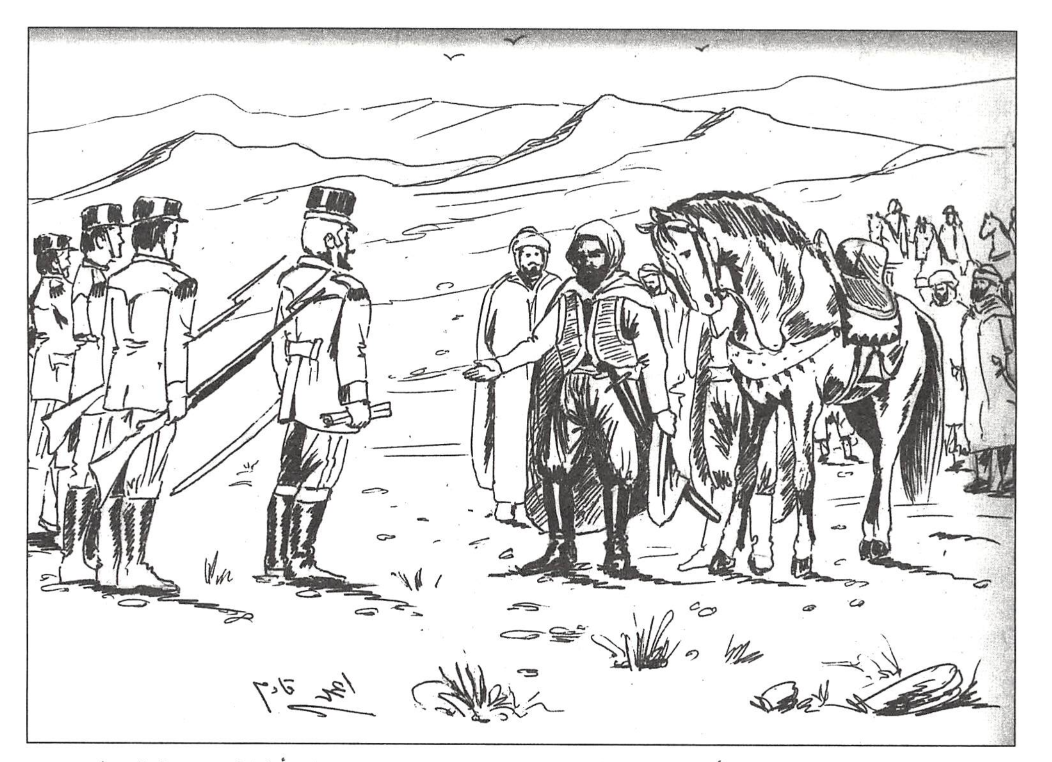
الجنرال بيجو: ماذا عن التبادل التجاري، أرى أنه يجب أن يعود بين مناطقك ومناطقنا.

الأمير عبد القادر: المناطق كلها ملك الجزائر، وليس لكم فيها شيء، وأما أنكم قد أخذتموها عنوة.. فذلك بسبب ضعاف القلوب وبطش إجرامكم على هذه الأرض، واعلم أن الأيام كفيلة باسترجاعها ولو طال الزمان، أما ما اقتضت به الظروف الآن فإني أريد في أي تبادل أن يكون السلاح بدل الطعام، والأهم إطلاق الأسرى لديكم وحُسن النية، وإن نُقض العهد فلست أنا من يفعل ذلك... كم يلزمك من الوقت لمصادقة بنود المعاهدة؟

الجنرال بيجو: ثلاثة أسابيع.

الأمير عبد القادر: المهم، تلمسان أولاً، وإن لم تعيدوها فلا أرى ضرورة لتحقيق هذه المعاهدة، حتى لو خرَّبتم محاصيل القبائل، فلدينا ما يكفي من الحبوب ولكم العقاب إن أقدمتم على هذا.

* * *



معاهدة وادي تافنة بين الأمير عبد القادر والجنرال الفرنسي «بيجو» على أطراف «مدينة تلمسان»

حاضرة الأمير عبد القادر مُعسكر

بوحميدي: مولاي الأمير لقد سارت الأمور كما دُونت في نقاط بنودك.

الأمير عبد القادر: عظيم هذا الأمر، كنت أخشى أن يتعمدوا ككل مرة تأويل البنود في رسائلنا حسب لغتهم فتأخذ منحى آخر.

بوحميدي: لا خير في قوم يتلونون كل لحظة وساعة، لقد علّقوا على أمر حدود دولتك، ولم يفهموا المقصود بعدما تُرجمت الرسالة.

الأمير عبد القادر: الأمور واضحة، وهم هكذا يتغابون بإرادتهم، سأراجع مسألة الحدود معهم مرة ثانية، ولكن ماذا عن تلمسان؟

بوحميدي: أنتظر الآن أن تأمرني لدخول قلعتها المشور، وكافنياك سيغادر من باب المدينة الثاني رفقة جنوده.

الأمير عبد القادر: هذا خبر سار... حمداً لله والشكر له، انطلق الآن يا سي بوحميدي، وأبلغ تلمسان عند أسوارها قَولي: لبيك تلمسان....

إلى الصون مدت تلمسان يداها	ولبت فهذا حسن صوت نداها
و خابت ظنون المفسدين بسعيهم	ولم تنل الأعداء هناك مناها
ووهران والمرساة كلاً بما حوت	غدت حائزات من حماك مناها

* * *

اعتبر الأمير عبد القادر أن هذه المعاهدة حجر الزاوية لبناء الدولة وتشييد حصونها العالية، وسعى إلى توسيع حدودها بمباركة الأهالي الموالين له، لتشمل العديد من المناطق في أرجاء الجزائر ما عدا المناطق الساحلية، وعمل على إرساء العديد من الإصلاحات الجديدة والاستثنائية.

* * *

الجيلالي: إنه ليوم فرح كبير مولاي الأمير، فلقد تزينت تلمسان بأحلى حلَّة وهي محررة، وأرضها أضحت طاهرة من الغزاة المستعمرين.

الأمير عبد القادر: علينا أن نتجنب الغلو في البهجة والتغني بالنصر، يجب أن نفكر في المستقبل، لا أن نبقى في دائرة الحاضر.. فالعديد من الحواضر لا تزال تحت يد المستعمر وعلينا استعادتها بتضافر وتضحيات أبنائها...

ما يشغلني الآن هو أمر جمع المحاصيل بأسرع وقت قصد توزيعها في أمكان مختلفة كي نستطيع ضمان الانتقال والحركة إذا ما عاد الغزاة إلى غدرهم، فإن الغدر صفة تلازم طبعهم.

الجيلالي: فعلاً سيدي الأمير.. لعل فكرة تقسيم المناطق تحت إمرة مندوبين لك يسهل المهمة... لقد سُررت بعد اعتمادك لراية خاصة وسكِّ العملة، واللهِ إنه أمر في غاية الأهمية.

الأمير عبد القادر: علينا يا سي جيلالي أن نتبع أسس التنظيم وأن تكون كل منطقة هي عاصمة بذاتها، وتنتج ثرواتها، وننتقل لها في أيام الحرب إذا ما أطبق العدو علينا، فهو لا يؤمَن له جانب... أما عن المندوبين فهم من خيرة العقول وأصفى النفوس، وهذا الأمر ضروري، المهم أن يبقى الجميع على عهد واحد.

الجيلالي: فعلاً يا سيدي الأمير، كلنا تحت رايتك ولواء الكفاح والنصر ضد الغزاة المعتدين.

الأمير عبد القادر: بوركت وصدقت يا مرافقي الأمين، فوالله لن نخشى في الله لومة لائم....

الجيلالي: نحن معك دائماً سيدي الأمير، ما أثلج صدري هي

تلك الحصون التي شُيِّدت وضربت عليها سياج من الرماة، ومعامل الذخيرة والسلاح، إنه إنجاز رائع مولاي الأمير، ولكن.. ما بال بعض القبائل وبعض العروش قد تخلفت عن دفع أموال العشور لهذه السنة ولم تلتزم من أوفدنا لهم من رُسلنا للانضواء تحت رايتك؟

الأمير عبد القادر: لقد عاد بعضهم لهذا الأمر بعد أن كنت لهم ناصحاً ومحذراً من خدمة المستعمر من حيث لا يدرون، واللهِ إنه أمر يحزُّ في خاطري عند كل مرة اصطدم مع إخواننا في الأرض والدين، فما يفعله بن عبد الله في إقليم تيطري والجهة الجنوبية، وقيام محمد بن عودة بدعوته لأمر محزن، فقد أكرم مقامه والدي الحاج محي الدين بعد قدومه من بغداد زاعماً أنه من ذرية الغوث الأكبر سيدي عبد القادر الجيلالي، والآن بعد عودته من المغرب الأقصى من عند السلطان عبد الرحمن أخذ يستميل الناس بكثير العطاء ويدعو للخروج عنا، فهو بذلك يدعو للخروج عن المقاومة ومقارعة العدو ويُثَبِّت الغزاة في وطننا ويحقق أطماعهم وأهدافهم.

الجيلالي: علينا سيدي الأمير أن نضع حداً لهذا الأمر، فلقد كثرت وشاياتهم وأُبيد الكثير بسببهم.

الأمير عبد القادر: أحتاج لموجب شرعي في ذلك، فقتال الإخوة أشد على القلب وأدمى للجراح، المهم الآن أن تقوى الدولة بتكاتف رجالها وأهلها.

* * *

بعدما فرغ الأمير عبد القادر من إصلاح أمور دولته التي تحت نطاق حكمه وبين مواليه، كان من المهم الالتفات إلى القبائل والمدائن التي فضَّلت عدم الانضواء تحت رايته ومنح الدعم له،

فخاض العديد من الصولات والجولات قصد توحيد الجهود ضد المستعمر الذي يعاديه.

* * *

حاضرة الأمير في مُعسكر.

الأمير عبد القادر: يا سي جيلالي أريدك في مهمة مستعجلة.

جيلالي: نعم مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: أريدك أن تنقل ما أقوله لك إلى خليفتي في مليانة سيد محمد بن علال، وتبلغه أن يخط رسالة إلى محمد بن عودة ومن معه من القبائل التي تنكَّرت للواء الطاعة والدفاع عن البلاد طمعاً في العطايا، وأحذِّرهم من سوء العاقبة لشقهم الصف وسُبل وحدة البلاد.

جيلالي: سأبلغه هذا سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: رافقتك السلامة والأمان.

بن تهامي: سيدي الأمير.. سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: ما الأمر يا حاج؟

بن تهامي: السلام عليكم.

الأمير عبد القادر: وعليك السلام والإكرام، تفضل...

بن تهامي: لقد امتنع بنو الاغواط الغرابة وجاهروا بالعصيان في زاوية عين ماضي[1]، وأخشى أن يسري هذا الحال في الناس جميعاً هنالك.

الأمير عبد القادر: يا له من خبر مؤسف، واللهِ إنها زاوية

(1) زاوية عين ماضي: أو الزاوية التجانية، وهي إحدى الزوايا الدينية الكبيرة في الصحراء الجزائرية وإفريقيا.

محمدية مباركة، مكانها في القلب كبير، وأخشى ما أخشاه إن هممت بجيشي نحوهم ساعياً لرأب الصدع أن أضل. . آه يا بن تهامي ما لهذا الزمان يعاديني. . . .

أيا حيرتي وما الذي أصنع   قد ضقت ذرعاً وما ينفع
وكلما قلت هذا مخرج   يسد عليّا فما أطلع

* * *

أحس الأمير عبد القادر أن حروبه ضد القبائل المعادية له أمر فُرض عليه، فقضى على شوكة محمد بن عودة ومن معه في المدية ووهب لهم الحرية والأمان، ليتوجه بعد ذلك إلى الصحراء محاصراً زاوية التيجاني في مدينة عين ماضي، إلى أن استسلم من كان فيها واعتذروا لفعلتهم، فعاد من عاد إلى دعمه والانضواء تحت راية جيشه.

الشيخ بوطالب: بنيَّ عبد القادر في داري. . أهلاً بك.

الأمير عبد القادر: أهلاً بك يا عمّاه، لقد شغلتني أمور الناس ولم أزرك، كيف حالك يا شيخ؟

الشيخ بوطالب: أحمد الله على العيشة الهنية ورؤية ابن أخي ناصراً للدين والناس. . وللحق مهدياً، أما أحوالي فأقضي جُلَّ أوقاتي في خلوتي هذه أؤدي فرائضي، فكما ترى قد هرمت وعلى ما يبدو اقتربت المنية.

الأمير عبد القادر: لك العمر المديد يا عماه، واللهِ لم أجد أحداً ألجأ إليه غيرك، فلقد ضاقت بي الأرض بما رحبت.

الشيخ بوطالب: خيراً يا بني، أنت تدرك أن القنوط من رحمة الله لا يجدي نفعاً، لم أرك هكذا قط؟

الأمير عبد القادر: أُجبرت على قتال لم أُرده أبداً. . . سعيت لإصلاح اعوجاج القبائل واستكبارهم مُكرهاً.

الشيخ بوطالب: حسبك يا بني، لا تَلُم نفسك، فقد سبق عفوك سيفك دائماً.

الأمير عبد القادر: واللهِ مُكرهاً لا بطلاً، وكما تعلم رضى الله هو المنى لينتفع الناس من بعدي. . . فقد سخَّرني المولى ﷻ كي أسهر على راحة أبناء بلدي وأُيقظ الإيمان وروابط الوحدة بما تقتضيه أمور القتال ضد المستعمر.

الشيخ بوطالب: أعلم هذا يا ابن أخي. . المهم لا تغفل عن عدوك الأوحد الفرنسيس، فلا يُؤمَن لهم جانب أبداً، فالطمع قد جاء بهم إلى وطننا. . . أخبرني عن رحلتك، أين كانت؟

الأمير عبد القادر: كنت في شرق البلاد ووسطها، وجُلت جبال جرجرة ومحيطها من مناطق البربر[1]، واللهِ إن خليفتي «سي أحمد بن سالم» هنالك نعم الرجل. . وجدته كريماً ومقداماً وينضح بالشهامة هو ورجاله.

الشيخ بوطالب: وفقكم الله لما هو صالح لهذا الوطن، فالأمر قد يطول، وعليك يا بني أن يتسع صدرك، فلكل قبيلة طباعها وظروفها والعدو يقوى بفرقتكم ويسعى لها.

عاد الجيش الفرنسي إلى عادته القديمة، ونقض المعاهدة، ورأى أن ليس لها قيمة بعد أن خشي توسع نفوذ الأمير عبد القادر، وتمكن دولته العتيدة من الوصول إلى أمكان بعيدة، فعبروا غير مبالين

---

(1) البربر: وهي مجموعة إثنية تتواجد في مناطق معينة في الجزائر، وتسمى بالقبايل أو زواوة، لديها لهجة خاصة غير العربية تسمى بالأمازيغية.

أراضي دولة الأمير من دون إذنه، وسارعوا في العودة إلى صُنع المكيدة.

* * *

في حاضرة مُعسكر 1839م.

الحاج البركاني: بما تفكر سيدي الأمير؟

الأمير عبد القادر: كنت أفكر كيف سقطت قسنطينة في يد الغزاة، واللهِ يا حاج إنه أمر بالغ الخطورة، فلم تنفع الخنادق والثكنات التي أقامها أحمد باي، وقد استغل العدو أمر الهدنة واستجمع قواه على حاضرتها.

الحاج البركاني: فعلاً لقد استبسل المقاتلون هناك، ولكن دون جدوى، وددت أن أبلغك بأمر آخر، لقد خرق العدو الهدنة وعبر أجزاء من حاضرتك مرة أخرى.

الأمير عبد القادر: بئس صنيعهم هذا، والله لقد تنافس حكامهم في الغدر، وهذا الأمر لا يُسكت عنه أبداً.

الحاج البركاني: أجل سيدي الأمير، فهؤلاء الغزاة لا هدنة معهم ولا حديث سوى أرض المعركة.

الأمير عبد القادر: فعلاً... اكتب خطابي هذا وأمر رسلنا أن يبلغوا كل خلفائي في المقاطعات: إن الفرنسيس قد جابهنا بالخيانة، ومرّوا في حواضر حُكمنا المحررة من دون إذن منا.. واطلب منهم أن يتأهبوا للحرب المقدسة ويهيئوا السيوف ويعينوا على الإمداد وجمع الشمل، وأن يسارعوا في الانضمام إليّ في حاضرة المدية حيث سأنتظرهم.

* * *

تقاطرت الجموع من القبائل والأعيان لمعرفة ما ينوي عليه الأمير، فلم يُجدِ اجتماع واحد للحث على النفير، مما استوجب لقاء آخر كان فيه القرار وحُسن التدبير.

أيالة المدية، اجتماع الأمير عبد القادر بحلفائه، ورؤساء القبائل.

الأمير عبد القادر: بسم الله والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله ومن ولاه، تفضلوا بالجلوس يا رجال...

بالأمس قد بيَّنت لكم في مجلسنا الأحوال التي أقدم عليها جيش الغزاة وتعدِّيه على حدودنا وحرق القرى في الجبال، وقد كنت أسعى ضمن نطاق المعاهدة ليل نهار لجمع كل القبائل وتوحيد الصفوف لطرد الفرنسيس من كل شبر من أرض الجزائر... لكن القلوب لم تتآلف، واعلموا أن فتح باب الحرب سهل وميدانه صعب، وحيث إني رأيت اضطراب رأيكم بالأمس جمعتكم اليوم، فانظروا في أمركم وأظهروا ما ترغبون فيه، وإني أطلب من الله التوفيق لما فيه الصلاح.

أحد الحضور وقف قائلاً: ... إن الموت أهون من العار.

تبعه جموع الحاضرين بصوت واحد... إن الموت أهون من العار.

شيخ بن رويلة: يا مولاي الأمير لقد وافقنا الفرنسيس فيما طلبوه منا، وجنحنا للسلم، وحمَّلنا أنفسنا ما لا تطيقه على أرضنا.. فلا بد أن يكونوا قد قصدوا باعتدائهم هذا أن يستولوا على الحواضر المحررة ويستعبدونا جميعاً للأبد، ودون ذلك نبذل أموالنا وأرواحنا، فلا عدول عن الحرب، والنصر وتحرير البلاد كلها غايتنا المطلوبة.

الأمير عبد القادر: لكم ذلك يا رجال... حيث إنكم تريدون الحرب فلا محيص عنها، ومعاذَ الله أن أتخلف، سأكون بحوله تعالى وقوته أمام صفوفكم كما عهدتموني، غير أن لي حق عليكم أن تعطوني عهداً على الطاعة ولا تسلكوا معي ولا في سائر أمور الدولة سبيل الخيانة والغدر، ولا تولّوا الأدبار يوم الزحف فتُهزم... وغير ذلك الفلاح كله.

شيخ بن رويلة: سيدي الأمير.. نيابة عن الجميع نقسم بالله إننا لن نخون حضرة مولانا سيدنا عبد القادر ناصر الدين أو نسلك في طاعته سبيل الغش والخديعة، لا ظاهراً ولا باطناً، ولا سراً ولا جهراً، وإننا لن نتأخر عن الصفوف، بل الكل يقاتل المستعمر لآخر رمق في حياته.

الأمير عبد القادر: بوركتم يا رجال الله.. «وإن عدتم عدنا».. نسأل الله التوفيق لنا جميعاً وأن يجعلنا دائماً الشوكة التي تغرز في أعين الفرنسيس الغزاة، وإن تساعدوني سنرميهم في البحر.. على الله توكلنا.. وبنصره دعونا.

* * *

مدينة الجزائر، 1840م، الحاج المنور مبعوث الأمير عبد القادر.

الحاج المنور: السلام على من اتَّبع طريق الحق.. لك مني رسالة من مولاي الأمير عبد القادر، تفضل ها هي..

المارشال فالا بعد الاطلاع عليها: هي رسالة حرب إذاً.. لقد أبلغ سلطان مراكش بأنه عزم على الحرب، ويخبرنا أنه قد تعامل معنا بالاستقامة، ولا يريد التخلي عن مناطق نفوذه حتى حدود

تونس، ويسمي تنقلاتنا بالانتهاكات، وملاحقة قطاع الطرق من مقاتليه بالجرائم.

حسناً... بعدما اطَّلعت على رسالة عبد القادر.. لدي هنا وثيقة قد أعددتها تمنحنا طريقاً برياً بين مدينة الجزائر وقسنطينة وهكذا يكون الأمر قانونياً... وبما أنك رسول بيننا، وأشعر أنك مخوَّل لذلك.. فأريد توقيعك سيد المنور.

* * *

عادت رحى الحرب بعد وقت غير بعيد، وأمر الأمير جنوده بالتوجه من جديد إلى الشريط الساحلي والأراضي التي استوطنها «المعمرون»[1] و«الدائنون» بطاعة فرنسا بالتحديد، والعمل على مباغتتهم ومهاجمة عساكرهم.. وفي الجهة المقابلة دعا الحاكم الفرنسي فالا للتوجه إلى المدن الكبرى للأمير والسيطرة عليها.

أيالة المدية، حاضرة تيطري..

مصطفى بن بوطالب: مولاي الأمير، لقد حضر من عينته بريداً كي يخبرك بسائر أخبار الجند والمعارك.

الأمير عبد القادر: دعه يتفضل.

المختار: السلام على مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: وعليك السلام والإكرام، كيف حالك؟ السي المختار تفضل وأخبرنا ما عندك؟

المختار: بشائر النصر تلوح في العديد من المدائن يا سيدي،

(1) المعمرون: هم مجموعة من الأوروبيين تم استقدامهم للاستيطان في أرض الجزائر تحت شعار: ليكن الاحتلال فرنسياً لكن الاستيطان يجب أن يكون أوربياً.

لقد كان جميع الخلفاء على رأس فرق فرسانهم النظامية كما طلبت، وكاد خليفتك ابن سالم في منطقة البربر وجبال جرجرة أن يحرّر مدينة الجزائر، حيث أباد المعمّرين الذين استولوا على أراضي متيجة الخصبة، وأعمدة الدخان هنالك لاحت في الأفق، وفرَّ المارشال فالا بجيشه مرعوباً إلى عمق مدينة الجزائر متحصناً بأسوارها.

الأمير عبد القادر: أحسنت صنعاً يا بن سالم.

المختار: كذلك هو الحال في وادي بو بهير، فبعد كرٍّ وفرٍّ استطاع جيش الحجوط دحر العدو من بوفاريك إلى أن وصل إلى البليدة، وتمكنوا من دخولها، واستطاع أيضاً خليفتك في بسكرة سي محمد بن عقبة صدَّ عدوان جيش الفرنسيس.

الأمير عبد القادر: إنه أمر عظيم.. لك الحمد يا رب، بوركت بما جئت به يا سي مختار... أبلغ كل المدائن التي في طريق عودتك عن هذه الأخبار، ونحن هنا أيضاً أعددنا العدة جيداً لتحصين مداخل الجهة الغربية من الوطن.

المختار: هنالك أمر آخر حدث دون علمك سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: عمَّ تتحدث؟

المختار: مبعوثك الحاج المنور وقَّع وثيقة بالنيابة عنك مع المارشال فالا تسمح بتنقُّله من الجزائر إلى قسنطينة، وقد اتخذها ذريعة لذلك، فبعث ببعض جنوده للتوغل أكثر.

الأمير عبد القادر: ومَن سمح له بذلك.. كيف لنا أن نخسر مزايا اكتسبناها بهذه الطريقة والإهمال... يجب أن نوقف زحفه يا حاج مصطفى، ابعث برسول إلى بن تهامي ليسير بجنده إلى مستغانم

الآن، ونحن سوف ننطلق من هنا لمناوشة العدو كي لا يتحرك أكثر.

ولك جزيل الشكر يا سي مختار، أؤكد عليك مرة ثانية أن تخبر كل من في المدائن والقرى التي تمر بها عن هذه الانتصارات، وأبلغ من تلتقي بهم من خلفائي أن يتبعوا أسلوب التنقل بين المناطق ومباغتة العدو دون توقف، وإن كثر عددهم.

أسوار مدينة المدية... على أطراف الحاضرة...

الحاج البركاني: سيدي الأمير بلغني أن أعداداً من المتطوعين الأسبان والألمان انضموا إلى جيش العدو، كما أن ابنا ملك فرنسا الدوك دومال وشقيقه دورليان وصلوا إلى الجزائر يعتزمون مهاجمتنا وقد توجهوا إلى حاضرتنا تيطري[1].

الأمير عبد القادر: سوف تكون مقبرتهم على أسوار المدينة... يا رجال.. كما عهدتم «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»، علينا أن ننقسم إلى مجموعتين، قسم يرابط على أسوار المدية والأخر يقف وراء الأحراش والسهول ينتظر لحظة الهجوم، واعلموا أن هذا العدو لن يقوى على الحركة في مضيق السهول والأحراش، علينا أن نحاصرهم هنالك ونهجم بعد ذلك هجمة رجل واحد.

بداية المعركة.... صوت الخيل والمعارك...

الحاج البركاني: مولاي الأمير إن العدو يتقهقر إلى الخلف ويرتد أوله على أخره، ولكن العدد كبير جداً.

---

(1) حاضرة تيطري: تضم العديد من المناطق وسط الجزائر، وكانت عاصمتها المدية.

الأمير عبد القادر: طوِّقوا المكان الآن.. هيا.. وأشعلوا الكبريت والبارود من حولهم حتى إذا فزعوا وتشتتوا فالرماة لهم بالمرصاد، هيا.

الحاج البركاني: أمرك مولاي.

الجيلالي: يا أمير... يا سيدي الحاج عبد القادر... إني قادم من أطراف البليدة وهناك جيوش أخرى تتقدم إلى هنا، وجئت مسرعاً عبر المسالك كي يسبق فرسي مسيرهم.

الأمير عبد القادر: سوف أثبت هنا أنا والرجال تقاتل ونناوش العدو... ادخل أنت مدينة المدية الآن وأُمر الأهالي بإخلائها والاتجاه إلى الجبل على أن يصلوا إلى مليانة ويواصلوا مسيرهم.

خذ بعض الرجال معك يرافقوهم، ولا تنسَ أن تتزودوا بالطعام.

الحاج البركاني: يا رجال.. قد قُتل دورليان ابن ملك الغزاة.... قد قُتل... يا سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: بوركتم... يا الحاج البركاني، يا رجال علينا أن نتقدم الآن لتعطيل سير الغزاة، فهم في طريقهم إلينا، هيا يا رجال.

* * *

مجلس الحرب الفرنسي، مدينة الجزائر، 1842م.

المارشال فالا: جنرال، هل لك تفسير عن إفلات عبد القادر من قبضتنا في كل مرة، فلقد أحرقنا المدية واستولينا عليها ولم نُلقِ القبض عليه؟

الجنرال بيجو: مارشال فالا... بخبرتي العسكرية أدركت تماماً مكامن القوة عند عبد القادر، إنه يستخدم المدى الأوسع للإفلات، وهو يعرف المسالك جيداً.

المارشال فالا: أهذا كل ما توصلت إليه جنرال بيجو، هل تنتظر النياشين من جلالة الملك فقط لأنك تمكنت من رؤية عبد القادر من بعيد، لقد خاطبني الملك برسالة وهو في أشد الغضب، وقال بالحرف الواحد: لم نأتِ الجزائر لنفقد جيوشنا.. عليكم بحرب إبادة..

الجنرال بيجو: عليه إذاً أن يأتي هو ويحارب... مارشال فالا هنالك أمر آخر لا تختلف عليه كل الحكومات في فرنسا وكل من قاد الحرب ضد عبد القادر.. حتى الملك يدرك هذا في نفسه... الكل يعلم أن عبد القادر فارس شجاع ويتقن أصول الفروسية، وما يحيرني أنهم لا يثقلون كاهلهم بالمؤن مثلنا ولا النسوة كما نفعل نحن، وخططه تختلف من موقعة إلى أخرى، ويختفي فجأة.

المارشال فالا: إذاً يجب أن نبتكر طُرقاً جديدة للوصول إليه ومن معه، فلقد انزلق بين طوابيرنا كل هذه السنين، وضرب جيوشنا من خلفنا ومن أمامنا وكأنه يقرأ أفكارنا...

الجنرال بيجو: وأنت قلتها الآن، طرق جديدة... لقد أُرعب موالوه لما قُطّعت آذان العديد من الأسرى عندنا وأرسلت إليهم، وحان الآن أن نطبّق هذه الطريقة وأن نكون أكثر حزماً كي لا يُفلت منا مرة أخرى.

المارشال فالا: سنستخدم نفس الطريقة التي يستخدمها في حروبه، ونجعل نهجنا نهج حرب عصابات، ونُغير على القبائل الموالية له فنحرقها ونرعبها إلى أن لا يجد أحداً يقف معه.

الجنرال بيجو: وأنا معك في السعي لفناء كل من معه أو الانضمام إلينا.

المارشال فالا: سيكون معك الجنرال لامورسير، وهو محنّك في شؤون الحرب الميدانية وله من الخبرة الكثير.

* * *

اتسعت دائرة الحرب ولم يستطيع الأمير عبد القادر ومن معه مواجهة الجيش الفرنسي الكبير الذي كان يفوقه عدداً وعدَّة، ويساعده في غاراته من دان بطاعته من جواسيس بعض القبائل، فأضحى الأمير يغيِّر مكان إقامته من خلال عاصمته المتنقلة الزمالة[1] إلى أن وقعت معركة طاقين المشؤومة.

وهران، الغرب الجزائري.

المعاون سنغارنيه: عِمْتَ صباحاً جنرال.

الجنرال بيجو: أهلاً بك سنغارنيه... إني أنتظرك وأنتظر الأخبار.. ها.. قل لي.. كيف تمت الأمور؟

المعاون سنغارنيه: سيدي الجنرال بيجو، الأمور لم تسر مثلما ما عمدنا أن تكون عليه، فخلفاء عبد القادر... البركاني وابن سالم وبوحميدي و بن علال رفضوا المال مقابل تخليهم عنه، ولقد بعث لك محمد بن علال رسالة إذا أردت سوف أقرأها لك.

الجنرال بيجو: وما فحواها؟

---

(1) الزمالة: هي شكل عاصمة متنقلة ابتكرها الأمير، تحوي كل المرافق وتغير مكانها بحسب ما تقتضيه استراتيجية الحرب.

المعاون سنغارنيه: يقول: «لقاء هذه الخدمة التي أمارسها لأجل الوطن وخدمة لمولاي السلطان عبد القادر.. ماذا تعرض عليَّ يا بيجو وأنت الذي تحتاج إلى تصديق من سيدك وملكك؟ أتعرِض علينا المناطق من بلادي التي يمكن للبارود أن يستردها كما أخذتها؟! أم تعرض عليَّ المال وعار الخيانة...».

الجنرال بيجو: توقف.. توقف. تباً.. أغبياء.. سوف يموتون على يدي، لقد سحرهم عبد القادر هذا...

* * *

على تخوم المغرب....

محمد بن علال: سيدي الأمير، الأمور تسير على نحو بالغ الصعوبة.

الأمير عبد القادر: ما الأمر تكلم يا حاج؟

محمد بن علال: بعد المعركة وتراجع الجنرال لامورسير بلغني أن الدوك دومال توجه إلى جنوب شرق تيهرت إلى موضع طاقين، محل قوتنا المالية، وساعدهم العيادي على ذلك.

الأمير عبد القادر: اللعين، لقد استمالوا قلوبهم بالأموال الجسيمة والعطايا العظيمة، وما الذي حدث؟

محمد بن علال: استغلوا غيابنا وغياب الرجال على غرار بن تهامي وبن خروبي وغيرهم من القادة الذين يواجهون المستعمر في مناطق أخرى، وأكثر من هذا، وبتوجيه من العيادي الخائن ألبسوا جيوش الفرنسيس وبعض القبائل الموالية لباس السبايس[1] وارتدوا

(1) السبايس: وهم الخيالة النظاميون، وكان يطلق عليهم هذا الاسم في تلك الفترة.

اللباس الأحمر الخاص بجنودنا، فظنَّ الأهالي أنهم جندك واستبشروا وخرجوا إلى لقائهم، وتركوا الزمالة دون حراسة، وما هي إلا لحظات حتى تكاثر جيش الغزاة، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وحرقوا آلاف من الكتب الخاصة بك..

الأمير عبد القادر: يا الله..

محمد بن علال: وتفرقت الناس إلى الوديان والجبال هرباً، بل أخذ الغزاة كل الأموال.

الأمير عبد القادر: يا له من خبر مؤسف، إنا لله وإنا إليه راجعون... انصرفوا الآن.

الحاج بن يحي: ولكن يا سيدي الأمير دعنا نقتص منهم الآن ونقطع طريقهم ونثأر للأهالي..

الأمير عبد القادر: الحرب طويلة، والثأر للوطن كله... آمركم أن تنصرفوا الآن، واللهِ انه لحزن كبير... ألا لعنة الله على الجواسيس الذين يسترقون السمع والنظر ويهرعون لإخبار الغزاة بمكان ترحالنا كل حين.

الجيلالي: أنا من رأي الحاج بن يحي، علينا الآن أن نُغير عليهم ونقتص منهم لما فقدنا من الرجال.

الأمير عبد القادر: يا رجال، الحرب كرٌّ وفرٌّ، والعدو استنجد بمتطوعين وضعاف القلوب الذين باعوا دينهم بدنياهم وفرَّطوا بأرضهم للغزاة المستعمرين، ولديهم الآن عتاد كبير، ولم نجد ناصراً ينصرنا غيركم، فلا تكون ردة فعلنا دون تحكيم العقل، ولا يجب أن يثنينا أي أمر عن القتال، فالحق معنا، وهذه أرضنا ولكن ليس الأمر اعتباطاً فالمسير إلى هنالك طويل والتنقل يكشف موضعنا هنا، لا

تحزن يا سي جيلالي، فمن فقدناه من الرجال نعلم أنهم شهداء، أما الأموال سيخلفها علينا الكريم الوهاب، واعلم:

ما نبالي إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نشب
فالمال مكتسب والجاه مرتجع إذا النفوس وقاها الله من عطب

أما ضعاف القلوب ومن خانوا فبئس المصير، السيف في الدنيا والشقاء في الآخرة... انصرفوا يا رجال، أريد أن أنشغل قليلاً بالصلاة والدعاء... تفضلوا.

الأمير عبد القادر: يا رب ما لهذه القلوب تطاوع نفسها وتترك أرضها لمن يريد إن يُدمِّرها وينهب خيراتها ويستعبدها.

يا رب كن لنا عونا... هل من ناصر ينصرنا..

* * *

استمر نهج الغزاة في سياسة الأرض المحروقة، وازداد بطش آلة القتل بطريقة غير معهودة، واعتمد المستعمر خطة جديدة ورسم سياسة بديلة حاول النيل فيها من الأمير وأعوانه، فعمد إلى تدمير القرى وترهيب العُزَّل وأتباعه.

الجيلالي: مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: ما خطبك يا سي جيلالي، هات ما عندك؟ فنبرة حديثك مختلفة اليوم...

الجيلالي: عفواً سيدي الأمير لقد تمت مجزرة كبيرة في جبال الظهرة، ارتكبها المدعو «بيليسي» رفقة كتيبته، بأمر من جنرال الغزاة بيجو، وقد أُبيدت قبيلة بكاملها عقاباً على مساندتها لنا ومساندة الشيخ بومعزة ومقاومته... وأيضاً عمد لذلك كافياك ومعه ضابط اسمه كانروبار، فقد قيدوا الأهالي نحو مغارة، وأُمر بسد جميع

مخارجها ومداخلها، ويكون قد قضي عليهم داخل المغارة المغلقة اختناقاً.

الأمير عبد القادر: يا الله، يا له من جُرم وخطيئة كبيرة يقترفها المستعمر الجبان بغدر. وماذا أيضاً؟

الجيلالي: لقد ألقينا القبض على جواسيس لامورسير واعترفوا أنهم كان يرصدون موضعنا، وأن جيش قائدهم في طريقه إلى تجمُّع القبيلة، والفرَق تتجه من كل الأطراف نحونا.

الأمير عبد القادر: يا سي جيلالي محن هذا الزمان كثيرة لا تنقضي أبداً... يجب أن لا تهتز عزيمتنا، علينا المجابهة بما يقتضي الحال بما نملك لتغير الأحوال... يا حاج بن تهامي.

بن تهامي: نعم سيدي الأمير..

الأمير عبد القادر: امتطي أنت وبعض الرجال خيولاً مستريحة، وبلِّغ على وجه السرعة الأهالي التي تتجمع على أطراف موقعنا قتل جميع كلابهم، وتذكر إن القطيع الذي يترك أثراً يكون فريسة للذئاب، وابقَ هنالك على أهبة الاستعداد تراقب الموقع رفقة الرجال.

يا بن علال، اختر مع بعض الرجال خيولاً بطيئة واجعلها مجتمعة وراء تلك التلة، وأوقد النار إلى جانبها ليعتقد جيش الغزاة أن تجمعنا هنالك، وراقب الموقع جيداً... واهجم حين تحين الفرصة.

أما أنت يا سي جيلالي وبعض الجند سننقسم إلى فرقتين، واحدة ذات اليمين ستكون فيها معي، وأخرى ذات الشمال سيقودها سي بوحميدي، نتجه على عكس سيرهم لنباغتهم قبل أن يصلوا إلينا... هيا.

بداية المعارك. . . .

الأمير عبد القادر: يا رجال. . ها قد حانت الفرصة لكم، فلتكن المعركة تحية لشهدائنا الذين قضوا وتكريماً لأسرانا، وقصاصاً لمن أحرقوا وقتلوا غدراً من إخواننا. . علينا رفع الذل بسواعدنا، اجعلوا النزال بشدة فأنتم تهبون لأبنائنا الحياة والعزة من بعدكم. . . هيا.

أصوات المدافع والخيول. . . .

محمد بن علال: سيدي الأمير لقد نجح كمين الخيول، وأوقعنا فرقة الغزاة بالكامل وجئت مسانداً لك.

الأمير عبد القادر: ما أعظمكم يا رجال. . . . .

رجالي لهم همم سمت فوق الثريا   حماة الدين، دأبهم النضال

لهم لسن العلوم لها احتجاج   وبيض، ما يثلمها النزال

علينا أن لا نتراجع يا رجال، فكفَّة النزال في صالحنا. . . .

الحاج بن يحي: مولاي عبد القادر. . . إن الخائن العيادي على رأس فرقة من الغزاة قادمة باتجاهك.

الأمير عبد القادر: دع أمره لي، فقد نكَّل بعديد من أبناء قبيلته الشرفاء، حان وقت القصاص.

أصوات المدفع والخيول. . . .

الجيلالي: هذا ما تستحقه يا العيادي، لقد بقيت رجله معلقة بفرسه بعد أن اخترق البارود صدره، إنه مصير كل خائن، واللهِ إنه يوم عظيم، حتى النسوة بزغاريدهن يشجعن الرجال على القتال. . .

أصوات المعركة. . .

بوحميدي: يا رجال، لقد تراجع لامورسير الجبان ودبَّ الذعر في نفوسهم. . . بما تأمرني يا سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: بلِّغ الفرسان بجمع الغنائم، فقد عوَّضنا الله ما فقدنا خيراً.

بوحميدي: وهل نبقى هنا سيدي الأمير؟

الأمير عبد القادر: لا سي بوحميدي، علينا الانطلاق غرباً والتوجه إلى تخوم وجدة بعد أن ضاق بنا المقام هنا واكُتشف موضعنا.

* * *

لم تكن القبائل كما اعتقد الأمير عبد القادر على قلب رجل واحد، فتعاظم الخناق في الداخل وانعدمت البدائل وسقطت مناطق العديد من خلفائه بعدما استبسلوا في القتال، واختلفت موازين القوى، وأضحى الأمر أشبه بالمحال.

على أطراف مراكش، المغرب الأقصى، 1845م.

الأمير عبد القادر يتحدث مع نفسه: يا الله على ما آلت إليه المعارك، نفذت الذخيرة وتفرق الجمع والأحباب، وحُصرنا من كل مكان، وفقدت أشد الناس من أولي الألباب.

قدور بن علال: مولاي الأمير... سيدي الحاج.

الأمير عبد القادر: نعم.. يا شيخ قدور.

قدور بن علال: لم أعهدك هكذا شارد الذهن، بمَ تفكر؟

الأمير عبد القادر: والله إني أستشعر أن الأمور أصبحت في خواتمها، لقد حذَّرت السلطان عبد الرحمن أن سقوط الجزائر بالكامل هو سقوط لملكه في المغرب، وطلبت العون كما تعلم، وبادر بالمساعدة، وما إن تعرضت مناطقه للقصف واستماله الفرنسيس لم يحرك ساكناً ولم يكترث بما أبديت له من نصح، بل

وضعنا في خانة من أسماهم المتمردين، وهو الآن يحاربنا ويرسل الجيوش لقتالنا ومحاصرتنا مثلما يحصرنا العدو من جهة وطننا الجزائر، ووالله لم أُرِد أن تُرَقْ قطرة دم واحدة.

قدور بن علال: حماك الله سيدي الأمير، لقد مال سلطان المغرب للغزاة وخشيهم، والله عندما فقدت أخي سي محمد في وادي المالح قبل دخولنا حاضرة المغرب، أحسست أن بلادنا الجزائر هي التي تنزف، واحتسبت روحه الطاهرة قرباناً للوطن، وقلت: كيف لهؤلاء أن يروك خارجاً عن القانون بدل الوقوف معنا.

الأمير عبد القادر: رحم الله الحاج محمد، حاضرة مليانة تشهد له بحسن الصنيع، لقد حزنت لأجله حزناً شديداً..

والله يا شيخ قدور ليس المهم أن أوصف بأي صفة من الغزاة ومن يساندهم ويخشاهم... لكن الأهم أرض الجزائر، تلك التي عاث فيها المستعمر وتفرق الجمع إلا القليل القليل.

قدور بن علال: هوِّن عليك مولاي الأمير، نحن من أهلك وخاصتك، مصيرك هو مصيرنا، وعقدنا لواء الطاعة لتحرير البلاد من الأعداء بما نملك من قوة وعزم... وكل مقاومة في أرجاء الوطن تكمل بعضها، حتى وإن انطفأ نورها، فالنصر سوف يكون حليفها ولو بعد حين.

الأمير عبد القادر: بوركت يا شيخ، لا شيء أشد من عداوة الإخوة، فالعديد من القبائل في الجزائر تخلت، ولطالما سعيت أن أذيب فكر العشائر وتعنُّت بعض القبائل الذي عادة ما يدعو للعصبية وأخلاق الجاهلية، ونكون أمة واحدة..

والحال أشبه به هنا في المغرب، فلقد تنكرت لنا القبائل خوفاً

من تهديد المستعمر وجور الحاكم.. بعدما أكرمنا مقامهم يوماً بيننا على أرض الجزائر، فمن سقطوا اليوم منا أو منهم.. هم إخوتنا، كان لا بد أن يسقطوا دفاعاً عن الأمة... وليس في حروب بيننا.

قدور بن علال: أجل... لكن هنالك من القبائل في مدائن المغرب مَن طلب مُبايعتك أميراً لها لرفع جور السلطان.

الأمير عبد القادر: لا... لا يا شيخ، عدونا الفرنسيس المستعمر، وهو على يميني، أما جهل السلطان فقد أصبح من خلفي ولا شأن لي به.

قدور بن علال: ما أرفع قدرك يا مولاي الأمير..

الأمير عبد القادر: نحمد الله على ما جرى به قضاؤه.. علينا تبليغ من معنا أن نتجه إلى الصحراء بحثاً عن منفذ إلى الجزائر.

* * *

لما بلغ الجنرال لامورسير ما آل إليه الأمير عبد القادر من أحوال في المغرب، سار بجيشه ليمنع الأمير من تخطي الصحراء ونصب العيون وربط عليه الطُرق... وكان المطر متصلاً بالليل والنهار، فعميت عن الأمير الأنظار وانقطعت السِيَر والأخبار، فخاف لامورسير أن يكون من خرج لأجله قد توارى عن المكان وأصبح في آمان.

الجنوب الغربي من الجزائر، 1847م.

الجيلالي: سيدي الأمير، الحمد الله، لقد أصبحنا على أرضنا أرض الجزائر، انظر يا سيدي إنه الحاج بن حبيب وبن يحي رفقة الرجال.

الحاج لعرج: الحمد لله على سلامتك مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: السلام عليكم... شكراً لك يا حاج، والله إني أفتخر بكم، أنتم أهلي وخاصتي الذين تحمَّلتم معي تعب الحرب والمسير.. وها قد التقيت ببعض الرفاق مرة أخرى.. وبعضهم الآخر نال الشهادة....

الحاج بن يحي: وكيف ترى الأحوال مولاي الأمير؟

الأمير عبد القادر: إن الأحوال كما ترون والأخبار كما تسمعون... فالعديد من القبائل انصرفت وانقضى أمرها ليس خدمة للوطن، أما بعضهم الآخر فقد قدَّموا أرواحهم فداء لمسيرة النضال.. ولقد عاهدت نفسي أمر المشورة، فما الحيلة.. أخبروني ماذا نحن فاعلون؟

قدور بن علال: الذي تراه مولانا الأمير.

الأمير عبد القادر: طول المسير كنت أناجي رب العالمين أن يهبني التدبير، وإني لا أرى غير التسليم لقضائه، ولقد أجهدت نفسي معكم في الذَّبِّ عن الدين والبلاد وساعياً للنصر وراحة العباد.

الحاج لعرج: نحن معك بما تأمر سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: يا إخواني، قد مضت سبعة عشرة سنة أقتحم الممالك، وأملأ بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك. وأستحقر العدو على كثرته واستسهل استصعابه، أتوغل غير خائف وأرتب له في طريقه المصائد وأشفي غليلي... تارة أنقضُّ عليه انقضاض الجارح... وتارة أخرى أنصبُّ إليه انصباب الطير المازح، ولا زلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية، إلى أن فقدت المعاضد والمساعد، وفني الطارف من الأموال، ودبَّت في

بنيديني الأفاعي، والآن بلغ السيل الزبى، وتفرَّق الجمع، وسبحان من لا يكيده كائد. . . والله.

ما سِرت قط إلى القتال   وكان من أملي الرجوع
شيم الأُلى أنا منهم   والأصل تتبعه الفروع

فالقول قولكم يا رجال، والأمر أمركم، وأبلغوني ما ترون.

* * *

بعد خطاب الأمير عبد القادر أمام رجاله وخاصته ودعوته لهم للمشورة في الأمر، استكان من كان لهذا الحديث وتحرك الوجدان، وتذكروا أيام الله فيهم، ومن سبقهم، واستقر قرارهم على أمر الاستئمان، وأُرسل بذلك رسولٌ إلى الجنرال لامورسير.

* * *

قدور بن علال: مولاي الأمير لقد بعث لك جنرال الغزاة لامورسير ورقة بيضاء عليه ختمه كي تضع الشروط بما يقتضيه أمرك، وبعث لك بسيفه هدية.

الأمير عبد القادر: والله يا شيخ قدور قبلت أمر الاستئمان هذا لرفع الغبن والمعاناة عنكم، وكما أسلفت القول البارحة يا شيخ إنه يوضع الأمر في باب استطراق الأمن الزمني. . على أن لا ينطفئ لهيب المقاومة بكل الأشكال ما دام الأعداء على أرضنا وما داموا سائرون في نهب خيراتنا وإبادة جمعنا. . . . أما ما أهداني إياه فهو من شيمنا، قد استقاه منا.

قدور بن علال: حتى إنه لم يتمالك نفسه واهتز سروراً.

الأمير عبد القادر: حسبك يا شيخ فلا أطيق هذا الحديث ولا الخوض في ما آلت إليه الأوضاع. . خُطَّ كتابي وضع شرط الائتمان

أن يقتضي المغادرة إلى عكا أو الإسكندرية رفقة أهلي وخاصتي بما يحفظ الكرامة ويصون شرف من معي، وأن لا يتعرضوا لمن يريد السفر معي من العساكر، ومن يبقى في الوطن يكون آمناً على نفسه وماله.

قدور بن علال: إنه أمر حكيم أن نتخذ من عكا أو الإسكندرية أرضاً لإعادة إحياء النضال.

الأمير عبد القادر: أجل يا شيخ.. فالإقامة في ديار العرب والمسلمين أهون علينا كي نُبقي روح الكفاح والمقاومة تنبض دائماً ونحيي نفوس الناس لطرد الغزاة المستعمرين.

* * *

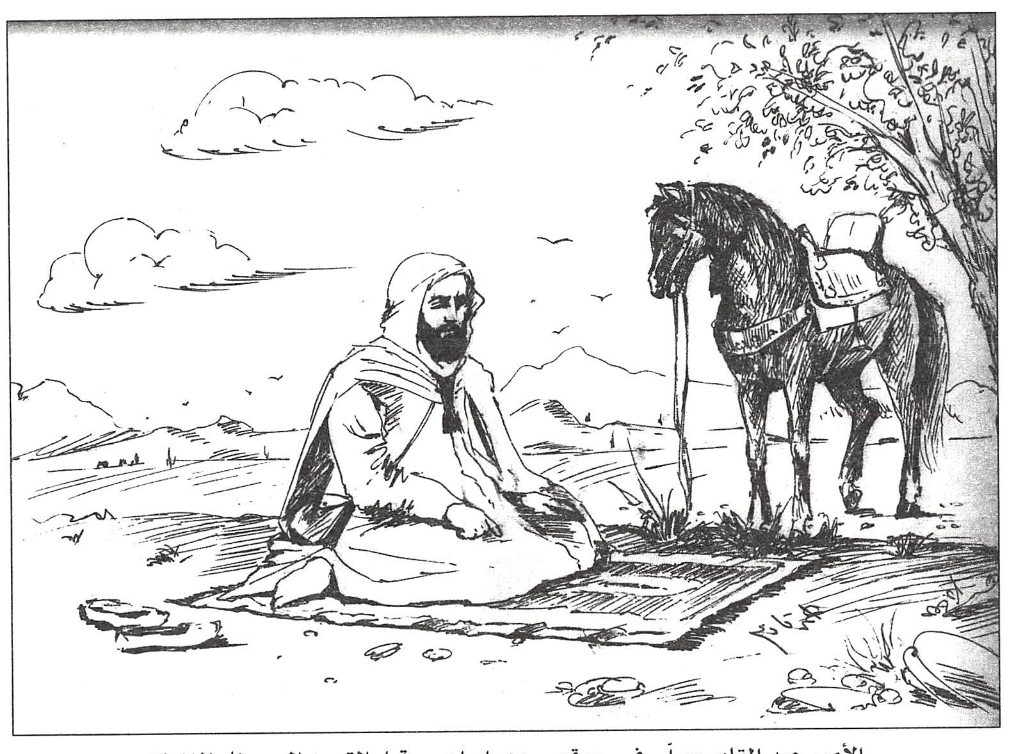
مدينة وهران، الغرب الجزائري.

جندي فرنسي: سيدي الجنرال، رسول عبد القادر ينتظر إذن الدخول.

الجنرال لامورسير: دعه يدخل.

قدور بن علال: السلام على من اتبع الحق.

الجنرال لامورسير: أهلاً مسيو قدور... سعيد أنا برؤيتك مرة أخرى.



الأمير عبد القادر يصلّي في «موقع سيدي إبراهيم» قبل التوجه إلى ميناء الغزوات

قدور بن علال: مولاي الأمير عبد القادر بعث لك الرد في هذه الرسالة، ويقول: إنه لا تفاوض في شروطها

الجنرال لامورسير: حسناً، أخبره أنني موافق نيابة عن ملك فرنسا وابنه الدوك دومال، وسأنتظره على مرسى ميناء الغزوات[1] بعد أسبوع من الآن.

* * *

سارع الجنرال لامورسير وبعث برسالة إلى الدوك دومال ابن ملك فرنسا وأخبره أنه وافق نيابة عنه بشروط الأمير عبد القادر ربحاً للوقت ولعدم إضاعة الفرصة، وقد أعطى ميثاقاً له، فوافق دومال على الفور واتجه بباخرة إلى مرسى الغزوات للقاء الأمير المُبعد.

موقع سيدي إبراهيم، الأمير عبد القادر رفقة أهله وأتباعه قاصداً مرسى الغزوات.

صوت الخيل...

قدور بن علال: لَمَ توقفت مولاي الأمير؟ هل أنت بخير؟ ما عهدتك تطيل الصمت هكذا...

الأمير عبد القادر: يعز عليَّ الفراق يا شيخ.. هنا ومنذ سنتين كانت موقعة سيدي إبراهيم... هنا رفقة الرجال أذقنا هذا العدو درساً لن ينساه التاريخ أبداً، سوف أنزل عن فرسي لأصلي ركعتين.

* * *

---

(1) ميناء الغزوات: يقع في غرب الجزائر، وهو تابع لولاية تلمسان حالياً.

مرسى الغزوات، تلمسان، الغرب الجزائري، 1847م.

الجنرال لامورسير: سيدي عظيم الشأن الدوك دومال، إن مسيو عبد القادر ومن معه قد وصلوا الآن... ولقد تجمَّعت الأهالي لرؤيته وتوديعه.

الدوك دومال: مم... فعلاً.. دعه يقترب.

الجنرال لامورسير: أمرك سيدي... إنه يتقدم إلينا دون أن أمره بذلك..

الدوك دومال: لا عليك.

الأمير عبد القادر: السلام على من اتبع الهدى.. لقد سمعتهم يقولون إنك ابن ملك فرنسا.

الدوك دومال: نعم هذا صحيح، تفضل بالجلوس.

الأمير عبد القادر: نحن أبناء الدين المحمدي نلتزم بالميثاق... فهذه الساعة التي قدَّر الله تعالى أن يكون فيها ما نحن فيه الآن بنُيت على ميثاق الاستئمان مع الجنرال لامورسير.. فلا أخشى أن ينقض ابن ملك فرنسا الميثاق.

الدوك دومال: لا مسيو عبد القادر.. أوافق ما اتفقت عليه مع الجنرال لامورسير، وقد صادق الملك عليه أيضاً.

الأمير عبد القادر: من شيمنا إكرام الضيف.. وأنتم ضيوف عندنا، وإن كنتم ضيوفاً ثقالاً ولم ندعوكم أبداً إلى ديارنا.

.. لك هذا السيف مني واحسبه شرفاً لفرنسا وفخراً عظيماً لها.

الدوك دومال: شكراً، قل لي من يرافقك في هجرتك، أريد منك بعض الأسماء؟

الأمير عبد القادر: يرافقني من الأبطال الذين عاهدوا الله وعاهدوني بشرف التضحية معي، خليفتي الحاج بن تهامي، والحاج قدور بن علال، وأبنائي وأهلي، أما من بقي من العساكر فلكم منهم عهد الأمان كما جاء في نص اتفاق الاستئمان.

الدوك دومال: . . . اتفقنا . . . رافقتك السلامة إذاً.

* * *

سار الأمير عبد القادر رفقة أهله وخاصته متجهاً إلى الباخرة الحربية المعدة لنقله، والناس يتباكون على فراقهم لخيرة الأبطال ومُذل الأعداء، فعمَّ الحزن الشديد كل المدائن والقرى، وساد العزاء لفراق من دافع عنهم وعن أرض الوطن من الغزاة الغرباء.

حان الوداع فضجَّت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فادي
سارت سفنهم والنوح يصحبها كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد[1]

مدينة وهران، في مكتب الجنرال لاموريسير.

آمر المشاة الفرنسية: سيدي الجنرال. . لقد عمَّ الحزن في كل مكان، وهنا في وهران يجتمع الأهالي كل مساء، وأيضاً القرى والبوادي تتذكر مآثر عبد القادر، واشتغلت المنادب دون انقطاع، هل تأمرني بفض تجمعاتهم؟

(1) أبيات من قصيدة قالها الشاعر الأندلسي ابن اللبانة في وصف رحيل الحاكم المعتمد عن اشبيليا أسيراً، وهي مطابقة لما حدث للأمير عبد القادر المبعَد.

الأمير رفقة والدته ومن كانوا معه على متن السفينة «الأصمودة» البحرية المتوجهة إلى جنوب فرنسا

الجنرال لامورسير: لا . . . لا تفعل هذا الآن، علينا أن ننتظر بعض الوقت كي ينساه الجميع . . . فاسمه كفيل بأن يحفِّز الأهالي ويثوروا علينا من جديد. هل تعلم أنه لولا الحروب مع عبد القادر كنت سوف أبقى ضابطاً صغيراً مثلما جئت من فرنسا، ولولاه ما تحصلت على هذه الرتب والنياشين، ومثلي الكثير.

❊ ❊ ❊

بعد مسير أيام في عرض البحر، كان الأمير عبد القادر يقف مُتأملاً ويُفكر في الجزائر التي تركها تعج بالجيوش الفرنسية تزحف بأبشع الطرق الوحشية دون رحمة نحو أغلب المناطق والقبائل المشرذمة التي أضحت غير محمية رغم توزع المقاومات الشعبية في الأرض الجزائرية.

على متن الباخرة «الأصمودة» البحرية.

الحاجة الزُهرا: هوِّن عليك يا بني عبد القادر . . . مالي أراك وحيداً؟

الأمير عبد القادر: آه . . . أشكو إلى حيرتي حيرتي، فليس إلى غيرها مفزع . . .

يا أماه إن الروح انفصلت عني وبقيت هنالك، في وطني الجزائر . . . وانشطر وجداني بحثاً عن وحدة بلدي، تمنيت أن يكون معي والدي رحمة الله عليه . . قصد المشورة، فقد كان عوناً ومرشداً.

الحاجة الزُهرا: رحمه الله . . . يا بني ما فعلته طيلة هذه السنين لأمر عظيم، وأنت قلتها الآن: الروح هنالك . . فروحك يا بني تُرعب المستعمر، وتأكد أن من تركتهم على دربك من المقاومين الشرفاء سوف ينتهجون بنهجك.

الأمير عبد القادر: آمل ذلك يا أماه.. والله دعائي ليل نهار، أن يؤلف الله بين قلوب أبناء الجزائر وأن تتحول المقاومة كلها تحت لواء واحد على كامل تراب الوطن ضمن كفاح يشارك فيه الصغير الكبير والضعيف القوي والجاهل العالم، لطرد الغزاة الغاصبين ورفع الظُلم عن أرضها الطيبة.

الحاجة الزهرا: سيكون ذلك، فكما كانت ثورتك يا بني تكسر شوكة الغزاة وتوقف زحفهم، سوف يأتي من يحمل رايتك ويكمل مسيرتك، وعندما نصل إلى الأمصار العربية سوف تهب وقتك لهذا الأمر.

الأمير عبد القادر: وهذا ما أنوي فعله يا أماه.

* * *

اقتربت الباخرة التي كانت محملة بالشيوخ والأطفال والنساء وحتى الجرحى من الوصول إلى مرسى طولون الفرنسي، واقترب موعد الخديعة، فلم يكن يعلم الأمير أن جميع أملاكه وأمتعته بيعت بأثمان زهيدة، ولم يكن يعلم أن سلطان مراكش خانه وقتل موفده الأمين بوحميدي، ولم يكن يعلم أن التوجه إلى مرسى طولون ليس لإتمام الرحلة نحو المشرق... لكنه طريق إلى سجنه البائس.

الباخرة «الأصمودة» البحرية ترسو في ميناء طولون جنوب فرنسا 1848م.

الأمير عبد القادر: لقد طال المقام هنا، هل من أحد أخاطبه؟... أين الترجمان لورو؟

لورو روسو «الترجمان»: أنا هنا سيد عبد القادر، كنت أجهز الأغراض للنزول، فقد رست الباخرة.

حاكم طولون بيار أوبي يصعد الباخرة: يا له من يوم جميل. . . الأمير عبد القادر بيننا الآن، الكل يتحدث عنك هنا. . . أنت شُغلنا الشاغل هذه الأيام، أعرِّفك بنفسي. . أنا بيار أوبي حاكم طولون، أهلاً بك بيننا.

الأمير عبد القادر: أهلاً سيد بيار. . . .

بيار أوبي: نريد منكم النزول جميعاً.

الأمير عبد القادر: ولِمَ تريدنا أن ننزل من على ظهر الباخرة؟ لا أرى أي داعٍ لذلك، فالسفر إلى المشرق ما زال طويلاً. . . وإن أردتم حق الضِّيافة فلكم منا الشكر الجزيل.

بيار أوبي: ربما ضيافة طويلة، أعتذر مسيو عبد القادر، عليك أن تنزل أنت ومن معك. . إنها الأوامر.

الأمير عبد القادر: عن أي أوامر تتحدث؟

بيار أوبي: إنها أوامر جلالة الملك. . ، عليك أن تنزل وتُرافق العساكر ومعك عائلتك فقط إلى «حصن لامالغ»، إلى أن يأتي الأمر من باريس، أما البقية فوجهتهم إلى جزيزة القديسة مرغريت.

الأمير عبد القادر: هل تعي ما تقول؟! إنهم معي وخاصتي. . . أعتقد أنكم تنكرتم للعهد ونقضتم الميثاق وعدتم إلى طباعكم طباع الغدر والخيانة، والآن تحملونني أسيراً رفقة من معي؟

بيار أوبي: إنها الأوامر. . . . الإقامة هنا لأجل المخابرة مع الدولة العثمانية وصاحب مصر للنظر في شأنك، وربما ستبقى أبد الدهر هنا. . .

الأمير عبد القادر: خسِئَتْ طباعكم وذلَّ ما أنتم فيه، لقد أخذتموني غدراً. . . لن تنجوا من فعلتكم هذه، واعلم أنت ومن معك أن الأسود تبقى مُخيفة في أسرها حتى وإن نبحت عليها الكلاب. .

القسم الثالث

السيرة الإنسانية والفكرية

خلوة السجون في أرض فرنسا

امتلأ المكان حُزناً، وانقاد الأمير عبد القادر رفقة أهله ظُلماً، عبر ممرات الحصن المظلمة والرطبة، وكان نساء الأمير يبكين وهن يعانقن والدته الحاجة الزُهرا، التي بدت مثل ابنها صامدة في مشهد خرق فيه الفرنسيون كعادتهم بنود الاتفاق ومالوا إلى سياسة النفاق.

حصن لامالغ، مدينة طولون الفرنسية، في سجن الأمير عبد القادر 1848م.

«الكورنيل دوماس موفد الملك».

الكورنيل دوماس: صباح الخير سيد عبد القادر، أهلاً بك على أرض فرنسا.

الأمير عبد القادر: وأي خير وقيادتكم تترنح في الوفاء بعهدها الموثَق معها.

الكورنيل دوماس: للأسف مسيو عبد القادر، الأحزاب والجهات الرسمية منقسمة حول مصيرك وعارضت سفرك إلى المشرق، ويُبلغك الملك أن تنسى الوعد المتفق عليه.

الأمير عبد القادر: بكل بساطة تتلفظ بهذا الكلام، لا ودَّ فيكم أبداً... كنت أحسب ما بلغتموه من حضارة تزيدكم نُبلاً وحفاظاً على المواثيق.

الكورنيل دوماس: لا دخل لي باحتجازك.

الأمير عبد القادر: اسأل عن أسراكم عندنا كيف كانوا يعامَلون ويطعَمون من زادنا، ولقد كنت أنت وسيطاً أيام وثيقة تافنة، واللهِ إنكم أبعد من رُقي العمران الذي يحويكم... فلا شهامة عندكم.

الكورنيل دوماس: لا أعرف ماذا أقول... المهم الملك يُبلغك أن تقيم في أرض فرنسا وسوف تُعطى أماكن مناسبة لك ولأهلك إلى أن يُنظر في أمرك.

الأمير عبد القادر: أبلغه أني لا أقبل الإهانة لخاصتي ولا لأهلي ولا لنفسي في سجني هذا، واللهِ لو فرشتم سهول فرنسا ومسالكها بالديباج[1]... ما رضيت المقام بينكم، والله إن تأتوا لي بكل ثروات بلدكم وتضعوها في ذيل هذا البرنس لرميتها في البحر الذي يلطم جدران سجني... والله إني سأحمل هذا العهد إلى مماتي. استأمنتكم على نفسي بإرادتي لرفع الغُبن عن وطني فجعلتموني أسيراً، فلا عهد وفيتم وعلى أرض أبناء وطني بقيتم، اعلم أن الخزي والعار سيلحق بكم ما حييتم.

الكورنيل دوماس: لا أدري ما أقول... إنها الأوامر، ولكنك قاتلت فرنسا في كل مكان والآن نعرض عليك المقام في باريس.

الأمير عبد القادر: ما قُمت به شرف وواجب ودليل كمال الرجولة.. أتباهى به حياً وميتاً، ولم نبذل أنفسنا وأموالنا طلباً لدنيا وحرصاً عليها، إنما كان امتثالاً لأمر الله تعالى وحماية للدين والوطن.

الكورنيل دوماس: ولكنك الآن مُبعد وبين هذه الجدران في عداد المنسيين أو حتى الموتى.

---

(1) الديباج: لفظ معرَّب يقصد به أثواب الحرير.

الأمير عبد القادر: أنتم يا غزاة من ماتت إنسانيتكم وجفَّت ضمائركم، اعلموا أن كل يوم لكم في الجزائر هو يوم من آخر أيامكم على أرضنا، أما عن باريسكم هذه فلا أريدها، فلست الخديوي باشا مصر من يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزَّهاً يمرح فيه كيف شاء، إني أرى فرنسا الآن ما هي إلا سجن لي ولمن معي، ولا فرق لدي بين طولون وباريس.

* * *

أخذ موضوع احتجاز الأمير رفقة أهله وخاصته حيزاً كبيراً، ولأجل ذلك اجتمع ملك فرنسا بأعضاء حكومته وطرح عليهم قراراته وتوافقوا على النظر في أمر إقامته.

مجلس الأمة... باريس

الملك لويس فليب: بعد التداول في ما تم طرحه بشان عبد القادر بن محي الدين الموجود في حصن لامالغ، وانقسام الأعضاء بين مؤيد لسجنه وآخر مطالب بتطبيق بنود اتفاق الجنرال لامورسير... وقد استقر الرأي على سفره إلى الإسكندرية بدلاً من عكا، فهي لا تقع ضمن نطاق الدولة العثمانية...

أحد الأعضاء المعارضين.. مقاطعاً: كيف لنا أن نُطلق سراحه وهو من كان لنا ندّاً في الضفة الأخرى من فرنسا العظمى، ولولا هذه المعاهدة ما كنا قد ألقينا القبض عليه.

أحد الأعضاء المعارضين: سيدي الملك، لقد أتاح لنا القبض على عبد القادر أن نخفض عدد رجالنا ونوفر في نفقات الحرب المخصصة لأفريقيا ونتوسع أكثر، فلا نرى داعياً لإطلاق سراحه.

الملك لويس فليب وهو يدق على طاولة الجلسة: أرجو الهدوء.. لم أتمم كلامي.. ولم يَرِدْ في القرار أن يتم إطلاق

عبد القادر مباشرة، بل سنراسل محمد علي باشا قبل ذلك لاستقباله في القطر المصري.

بعد مرور أسابيع... داخل حصن لامالغ.

الكورنيل دوماس: أرى أنك في أحسن أحوالك يا أمير.

الأمير عبد القادر: أنت مرة أخرى.... لقد بلغني أنكم اجتمعتم وراسلتم محمد باشا في مصر لأخذ ضمانات ونقلي مباشرة إلى هناك، وهذا الأمر قد هدّأ من روعي، وكنت الآن أكتب رسالة ثانية إلى دوك دومال لعرض واقع الظلم الذي أعيشه رفقة أهلي ومن معي، فما أنا فيه من غدر لم أسمع به في أساطير الأولين والآخرين، ولو كنت أعلم أن الحال يؤول إلى ما آل إليه لما تركت أرض القتال حتى تنقضي منا الآجال.

الكورنيل دوماس: ربما أنا الوحيد الذي يستقبل منك كل هذا الكلام وتُشفي فيه غليلك، ولكن أردت أن أخبرك بأمر قد لا يسرُّك أبداً...

الأمير عبد القادر: وهل من سرور في غياهب السجن...

الكورنيل دوماس: لقد رفض محمد علي باشا قبول إقامتك في القطر المصري، وستبقى هنا مقيماً بيننا.

الأمير عبد القادر: هاه.. توقعت ذلك، لقد فعلها أسلافه من قبل وسلَّموا أرض الجزائر لكم دون مقاومة...

قدَّر الله وما شاء فعل، لنا رب ندعوه... ماذا أقول..

لو أنه رُمح واحد لاتقيته ولكنه رُمح وثانٍ وثالث

* * *

بعد فترة من الزمن قضاها الأمير عبد القادر رفقة عائلته في

سجن لامالغ دأب فيها على مراسلة حكومة فرنسا مرات عدة، كانت الرسائل أحياناً تلقى الرد وبعضها الآخر كان مصيرها التجاهل والإهمال، إلى أن جاء الأمر بنقل الأمير وأهله إلى مقاطعة ثانية إلى «قصر بو» حيث شعر بنوع من الانفراج، خاصة بعد سقوط الملك لويس فليب وتحوُّل فرنسا إلى نظام جمهوري.

قصر بو، أقصى جنوب فرنسا، 1848م.

الأمير عبد القادر: لا تحزني يا أم البنين، فموت ابننا عبد الله في طريقنا إلى هنا نحتسبه قرباناً للوطن.

لآلة خيرة: لقد كان مريضاً طوال الطريق، وقست قلوبهم فلم يهرعوا لمساعدتنا، والله إني أستمد القوة منك ومن لآلة الزُوهرا ولولاكما كُنت هلكت حزناً وألماً.

الأمير عبد القادر: أطال الله في عمركما... هذا هو حال المستعمر يا خيرة... كل فرد من نسل الجزائر هو في نظرهم عدو، لأنه سيقاومهم عندما يشتد عوده وتحين فرصته، لكن يجب أن لا تتزعزع ثقتك بالله تعالى، فهو يُمهل ولا يُهمل... نحن تحت الأسر لا حيلة لنا إلا الدعاء والصيام والتذرع لله تعالى...

لآلة خيرة: ونِعمَ بالله..

الأمير عبد القادر: لقد استبشرت خيراً بهذه المدينة، فقد اجتمع الناس من حولنا، وقيل لي أن بعض الناس كانوا يرددون عبارات تدعو لفكِّ أسرنا، حتى من زارني اليوم من الرهبان والقسيسين وجدت لديهم السماحة وأنصتوا لي لساعات...

لآلة خيرة: هذا صحيح... السماحة يشع بريقها منك دائماً،

آمل فك أسرنا يا حاج، ولقد سمعت أنهم أعطوك حرية التنقل في المدينة برفقة الجنود والعساكر.

الأمير عبد القادر: وأنا لا أريد ذلك.. ومن أراد زيارتي فمكاني معلوم، ولقد أعلنت الحداد وقطعت عهداً على نفسي ما دمت أسيراً وهم من نقض العهد، فلن أتنقل في أي مكان في هذه البلاد، سوف أبقى هنا في هذا الطابق العلوي إلى أن ينظر الرحمن في أمري، ويجعل ما هو خير لي في شأني.

لآلة خيرة: إن شاء الله يا حاج.

الأمير عبد القادر: لقد أبلغت موفدهم دوماس وقلت له: انظروا إلى سلطانكم الملك، كان ذا قوة وسطوة لسنين، وأشبه بالقراصنة، يركض ليل نهار لتوسيع ملكه، وها هو الآن قد انحطّ وعن عرشه سقط، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

* * *

انشغل الأمير عبد القادر في قصر بو بتدريس عائلته علوم الدين والفلسفة والتوحيد... كما التحق به بعض قدماء جيش إفريقيا والأسرى لخدمته ورعايته، وازدادت شعبيته في فرنسا دون مغادرة القصر الذي آثر البقاء فيه إلى أن يفي سجّانوه بالعهد.

كنيسة سان جاك، مقاطعة بو، جنوب فرنسا...

كورنيل أولفيان: صباح الخير حضرة الأب دوبوش.

الأسقف دوبوش: أهلاً بك كورنيل أوليفيان.

كورنيل أولفيان: جئتك بنفسي لتسليمك هذه الأمانة كما يسميها الأمير عبد القادر، يقول إنها مساعدة بسيطة للفقراء ودعماً لمركز الرعاية عندك.

الأسقف دوبوش: عبد القادر. . .؟ هل تعلم أني كنت أود زيارتك اليوم في مكتبك حضرة الكورنيل طالباً السماح لي بالذهاب إلى الأمير عبد القادر رفقة تلاميذي من المعهد اللاهوتي، فهل تأذن لي بذلك؟

كورنيل أولفيان: بالطبع يمكنك ذلك، فزوّاره كُثر هذه الأيام. . من وجهاء المقاطعة وضباطها ورهبانها، وكل من يغادر قصر بو لا يتوقف عن المدح بفكر الأمير وفلسفته وإيمانه الروحي الشديد.

الأسقف دوبوش: وهذا ما جعل الفضول يزداد عندي لرؤيته، حتى أن الصحف هنا في بو، كتبت عنه وتحدثت عن نقض المعاهدة وتعاطفت معه كثيراً. . لقد سرق قلوب الناس.

كورنيل أولفيان: فعلاً. . . غريب أمره، لم أرَ مثله من قبل، في أرض المعركة تجده مقاتلاً ويعامل أسرانا برأفة. . ويجالس من معه متواضعاً غير مُتكبر، أما البارحة فتراه يجمع المال وما استوفى من الأكل ويوصي الناس بفعل ذلك وعدم التبذير ليرسله إلى الفقراء، وتجده يتحدث في شتى العلوم ويحاضر في كل الأديان، فتشعر أن الدين واحد. . فعلاً إنه قديس.

الأسقف دوبوش: كلامك صحيح. . . وهذا ما سمعت عنه، وفي عظة الصلاة اتخذه المطران مثلاً للصبر عندما تحدث عن النفس التي يجب أن لا تتعب من التعبد والتقرب إلى الرب.

كورنيل أولفيان: عليك إذاً زيارته اليوم قبل الغد.

الأسقف دوبوش: ولماذا؟

كورنيل أولفيان: قد يصدر أمر بترحيله إلى مدينة امبواز، فقد بلغنا أن رجالاً من الانكليز ينتظرون الفرصة للتمكن من الفرار به إلى بلدهم، فلقد شاهدوه يقرأ القرآن من أحد المنافذ.

الأسقف دوبوش: إذاً يجب الآن أن أسرع لزيارته رفقة تلاميذي.

كورنيل أولفيان: زيارة موفقة... لكن لا تبلغه أبونا بما حدثتك به وبموضوع نقله.

❊ ❊ ❊

اجتمع الأمير عبد القادر مرة أخرى بخاصته المبعدين، وتم نقلهم إلى بوردو ثم من بعد ذلك إلى مدينة أمبواز في لحظة تاريخية جمعت أهالي مدينة بو المتأسفين على رحيله والمهتمين بمعاناته وأدق تفاصيل حياته.

عمدة مدينة بو «سار غواز»: جئت اليوم لأودعك أيها الأمير، لك مني كل الاحترام والتقدير، فأنت فعلاً مرآة شعبك هنا ونساند قضيتك.

الأمير عبد القادر نزل مترجلاً: لكم الشكر الجزيل، فلا يتلاشى الخير أبداً أو ينقطع وإن أحاطت به الشرور والأنفس المريضة من قيادتكم الجائرة.... ولا تزر وازرة وزر أخرى.

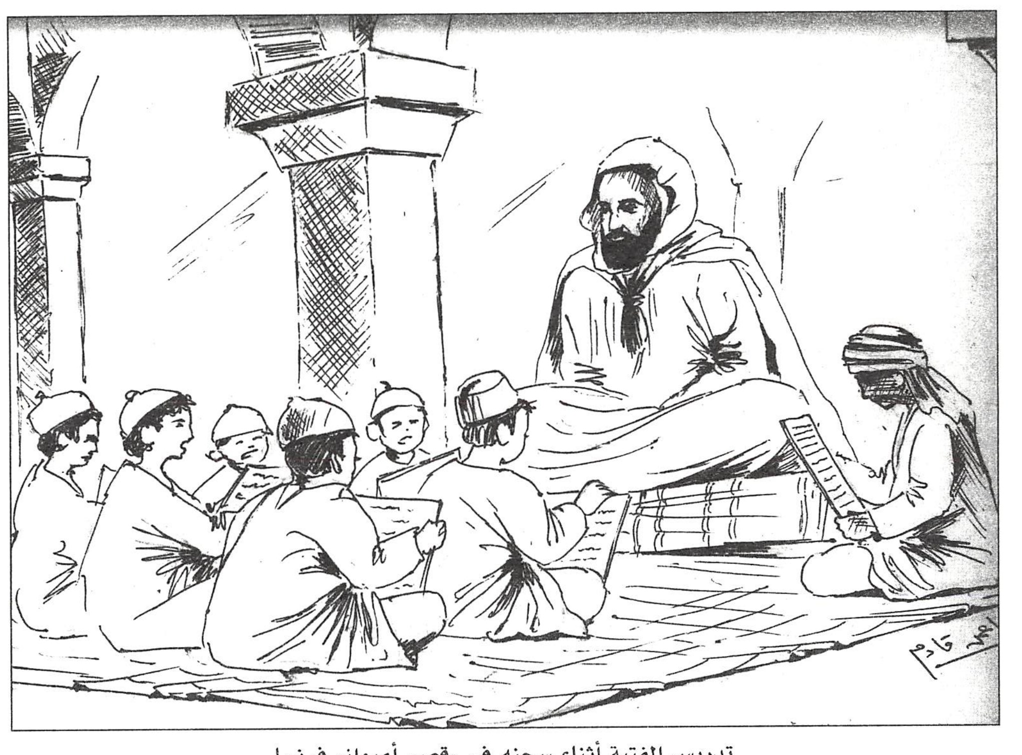
العمدة: أعمالك الخيرية تشهد لك بنبلك وفكرك المستنير يضيء دروب كل من جلس يسمعك، وها هم الناس يتدافعون لتوديعك وفاء لك.

الأمير عبد القادر: محبة الناس من محبة الخالق.. هي الحرب دائماً واستقواء الظالمين وطمعهم بالجاه يبيد الكادحين ويعمم الظلم لتغطية الخطايا.

العمدة: كم هو موزون كلامك سيدي الأمير، رافقتك السلامة ومدينتنا لن تنسى روحك الثائرة أبداً.

بعد فترة في سجنه الأخير قصر أمبواز 1849م.

الراهبة إميلي: عفواً.... هل تأذن لي بمقاطعتك أيها الأمير؟



تدريس الفتية أثناء سجنه في «قصر أمبواز» فرنسا

الأمير عبد القادر: تفضلي... لا عليك، فما أدَرِّسه وأُذَكِّر به الآن أهلي وخاصتي ليس فقط موجود في ديننا، فأنت تؤدينه معنا بكل محبة رفقة الراهبات والأب رابيون، إني أتحدث عن حُسن المعاملة والسعي في خطوات الخير، فخيركم أنفعكم للناس، وللأسف جيوشكم استباحت أرضنا وها أنا في سجون قيادتكم.

الراهبة إميلي: يشهد الرب أني أقدس قضيتك، وكلامك سيدي الأمير يؤلف بين القلوب ويزرع المحبة الأبدية بين الناس... كنت أود أن أقدم لكم هذه الأغطية كي تقيكم من برد وصقيع امبواز.

الأمير عبد القادر: بوركت بنيتي.. عندما تتآلف القلوب كما أشرت، وتسمو بذكر الله وأعمال الخير، يعمُّ دفء رباني يجعل كل واحد منا يترفع وينسى الآلام الدنيوية ويعيش في مناجاة لا يضاهيها أي شيء، واعلمي:

أني تعودت مسَّ الضر حتى ألفتُه   وأسلمني طول البلاء إلى الصبر

الراهبة إميلي: كلامك رائع سيدي الأمير.. فعلاً الآلام الدنيوية تحتاج إلى الصبر، وهي طريق للإيمان أكثر والتخلص من الخطيئة.. سوف أدعو باقي الراهبات لحضور مجلسك إذا كنت لا تمانع، فما بين ديننا ودينكم أقل من شبر واحد.

الأمير عبد القادر: أحسنتِ... أهلاً بكم في مقامكم هذا وأهلاً بنا بينكم.

* * *

بعد أكثر من سنتين قضاها الأمير عبد القادر في أمبواز يستقبل الوفود ويحاضر الزائرين في شتى العلوم ومدارك الفلسفة، لم يتوقف الأمير عن مراسلة لويس نابليون الثالث حاكم جمهورية فرنسا ومن

عرفهم من الوجهاء ورجال الدين، طالباً الحرية ومذكِّراً بنقض من حكموهم العهد ومواثيق الاستئمان.

* * *

الحاجة الزُهرا: لقد تفرَّق الجمع وانشطر الفؤاد، ودُفن من دُفن من أهلنا هنا بجانب هذا القصر، لماذا أمر حاكم فرنسا بسفر من معنا إلى الجزائر ولم يأمر بذلك لنا.

الأمير عبد القادر: هوِّني عليك يا أماه، ما عند الله خير وأبقى... يعزُّ علينا فراقهم، ولكن واللهِ امتلأ قلبي سروراً لسفرهم نحو أرض الأجداد وملاقاة الأحباب.

الحاجة الزُهرا: كلامك يا بني دائماً يهذب النفس ويهدِّئها، لكن أي مصير ينتظرنا يا بني؟

الأمير عبد القادر: العلم عند الله... في أيام العز ومبايعة القبائل سلَّمت أمري لرب العالمين ولم أُرد دنيا أصيبها، فكيف ونحن الآن تحت جور الظلم وغدر المستعمر أن نقنط من رحمة الله، فلا يجب أن يتسلل إلينا هذا الشعور...

مَنْ يتَّقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.

الحاجة الزُهرا: .. من ذهبوا يا بني كانوا سنداً لي في غربتي، وكانوا عشيرتي التي تخفف كربتي.

الأمير عبد القادر: لا رادَّ لأمر الله وقضائه... علينا بالدعاء والصبر.

* * *

ساحة قصر أمبواز أمام قبور أتباع الأمير عبد القادر.

لويس نابليون الثالث واقفاً خلف الأمير: لك كل العزاء سيد عبد القادر.

الأمير عبد القادر. . . يلتفت: . . إن هذه الأموات صعدت إلى خالقها ولم تعلم يوماً بأي أرض تموت، لكن حتماً تمنَّت الموت في بلدها الجزائر، لولا ما فعله حكامكم. . . ما سرُّ زيارة حاكم فرنسا لويس نابيلون لي في هذا السجن الذي لا تطيقه حتى هذه القبور.

لويس نابليون الثالث: أنا لا أعتبره سجناً، فهي إقامة حدَّت من حركتك في الجزائر فقط.

الأمير عبد القادر: إن رب العباد وحده الآمر والناهي. . فمن وكلكم بذلك؟ وها أنتم قد استوطنتم أرضنا وتبيدون الآن شعبنا من دون أي رحمة.

لويس نابليون الثالث: ليس هذا هو الموضوع الذي جئتك بنفسي لأجله، لقد أطلقت سراح بعض خاصتك وإخوانك وغادروا إلى الجزائر، وهم تحت أعيننا الآن، وأردت هذا الأمر لجسِّ نبض من معي في الحكم، والآن أدعوك لزيارة باريس.

الأمير عبد القادر. . مقاطعاً: لا. . . يا سيد لويس إن يوم مشورة خاصتي وأهلي لعقد عهد الاستئمان كان لهدف معين، وكان العهد أن أكون في ديار تدين بديني، فوجدت نفسي سجيناً. . . فقطعت عهداً وقسماً لا أحنث أبداً بعده، أن لا أبرح إلى أي مكان إلا مغادراً من بلدكم أو ميتاً فألقى ربي، فالقَسَم والعهد من شيمنا وديننا التي لا رجعة فيها.

لويس نابليون الثالث: وأنا جئتك لهذا، ولا أخفي أني معجب بشخصك، وقد فتحت يا عبد القادر خطاباً لم نكن نعرفه بين الأديان، وزيارتك لباريس هي زيارة لتوقيع ورقة سفرك نحو المشرق، وهذا وعد مني.

الأمير عبد القادر: . . لا يلدغ المرء من جحر مرتين، سوف

استشير أهلي وأستخير ربي ليكتب سبحانه وتعالى لي ما هو خير في أمري.

* * *

في مدينة باريس، 1852م.

الأمير عبد القادر: لقد غصَّت شوارع باريس بجماهير الناس، واستقبلنا وزراء هذه الأمة ووجهاؤها، لا أدري لماذا آلتهم الحربية تحرق كل من يجابهها في أرض الجزائر، أشعر بتناقض بين بعض عامة الشعب ومن يحكمه.

قدور بن علال: فعلاً... لقد ضاق صدر الجنرال لامورسير حين رآك تمشي في طرقات باريس والناس تتدافع وتتزاحم لتحيتك دون أن يصيبك مكروه.

الأمير عبد القادر: الله خير حافظاً يا شيخ قدور، كم أتمنى أن أمشي هكذا في وطني الجزائر وهي محررة والناس يحيّون كل من دافع عن الوطن.

قدور بن علال: سيكون ذلك يوماً ما.

الأمير عبد القادر: يكون ذلك عندما تتآلف القلوب على كلمة واحدة.. هيا بنا الآن فلقد أعدوا لنا ما أسموه بتكريم، وإن كان لا شأن لي به ولا بجموع قياداتهم الذين ينتظرون قدومنا، أريد الرحيل فقط.

أمام الحضور في قاعة قصر سان كلو باريس..

النائب إميل اولفيي: نشكر حضوركم اليوم، الكلمة لعظيم فرنسا وإمبراطورها، الحاكم العام لويس نابليون الثالث، تفضل سيدي...

على وقع التصفيق...

لويس نابليون الثالث: التحية لكم جميعاً.. الأمير عبد القادر معنا الآن، وقد سلب القلوب وهرع الناس في باريس من كل فج ليشاهدوه، ومن جهتي فلقد جلبت دقة نظري واستلزمت محبتي بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة والشجاعة، لا أنظر إليكم نظرة الأسير، ولو وجدت سبيلاً لخلاصكم من مدة من أيدي من نقض عهدكم ما تأخرت، هذه ورقة تسريحك تعلن عهد فرنسا لك وتفتح باب حريتك ومن معك إلى عاصمة الدولة العثمانية دون العودة إلى الجزائر، فدينك يلزمك بقسمك وعهدك، واعلم إن سجنك قد كدَّرني كدراً حقيقياً وإن كنت عدواً لنا، وفرنسا العظمى لن تتخلى عن الاستيلاء على كامل الجزائر، فهذا لا يمنعني أن أعترف بأخلاقك العالية وعلمك البليغ وشجاعتك وصبرك على الشدائد، ولذلك أفتخر بإطلاقك، فلقد غدوت رمزاً في كل أقطار العالم، شكراً لكم.

تحت وقع التصفيق.

النائب إميل اولفيي: الكلمة الآن إلى الأمير عبد القادر الجزائري.

تحت وقع التصفيق.

الأمير عبد القادر: بسم الله، والحمد الله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على خير خلقه وعلى آله ومن ولاه.

السلام والتحية للحضور... حضرة الإمبراطور، قد كنت أسمع بمحاسن أخلاقكم وعلوِّ جانبكم الذي لا يشبه حكمكم، وها أنا الآن شاهد على هذا الأمر وإن كان يحمل التناقض وروح المستعمر المتعالي... الحرية مبلغ عظيم أتمناه لبلدي الجزائر قبل أن أتمناه لنفسي، ولقد زادني أمر الدفاع عن بلدي شرفاً ورفعة... وتلك الأيام نداولها بين الناس... وعن قسمي وما أسلفت، فالحمد لله أني بقيت على عهدي.

ولا أقول نعم يوماً فأُتبعها   خلافاً ولو ذهبت بالمال والولد

عندما أمر الله بأن أنهض ثائراً، نهضت وجعلت البارود يتحدث حتى أقصى حدود وسائلي وإمكاناتي، وعندما قدَّر لي رب العباد أن أتوقف توقفت، لكن تركت في الجزائر ألوفاً مؤلفة من الناس الذين يتوقون للحرية، وطعمها لا يضاهيه أي طعم بعد المعاناة والقهر.

والله لو جمعت فرنسا سائر أموالها وخيَّرتني بين أن أخذها وأكون عبداً، وبين أن أكون حراً فقيراً مُعدماً، لاخترت الفقر في سبيل الحرية... في الأخير لكم التقدير جميعاً بعد أن عُدتم للميثاق الذي قامت عليه ثورتكم في بلدكم التي جاءت ضد الظلم، آمل أن تثبتوا على هذا ولا تعودوا لسابق عهدكم، وتراعوا ذلك في الضفة الأخرى، بلدي الجزائر، وإلى الله ترجع الأمور.

* * *

غادر الأمير عبد القادر باريس نحو الجنوب إلى مارسيليا، ومن هنالك انطلق في مسيرة بحرية طويلة نحو المشرق بعد أن استقبلته الجموع المرحِّبة، فما من مدينة يمر بها إلا لقي من أهلها الحفاوة والتكريم وإجلال العساكر، التي كانت ترحب بإطلاق البواريد والمدافع لحظة مروره إلى أن وصل إلى دار الخلافة الإسلامية القسطنطينية.

رحلة الإفراج... نحو المشرق

بعد أيام في مدينة اسطنبول، 1853م.

بن تهامي: السلام على سيدي الأمير، لقد تم ما أمرت به ورافقتني نفيسة بنت حسن، باشا وهران، وبناتها من دير راهبات المعونة، وهُنَّ الآن مع النسوة.. ولكن لِمَ تقدم لهنَّ يد المساعدة؟ فحسن باشا لم يكن سنداً للحاج محي الدين ولا لثورتنا في الجزائر.

الأمير عبد القادر: يا حاج إن العفو عند المقدرة أساس مهم في ديننا وشيمنا... وهؤلاء نسوة ضعاف، وعلمت أن وضعهن بائس، وأيضاً هنَّ يُحسنَّ اللغة العربية مثل اللغة التركية، فهم معنا في الطريق الصحيح وفي سفرنا بعد بضعة أيام.

بن تهامي: إلى أين سيدي الأمير؟

الأمير عبد القادر: إلى مدينة سمعت أنها جميلة المسكن، فهنالك الأرض أوسع، وأحتاج لقليل من الاستقرار كي أدبِّر أموري في ما بعد.

* * *

لم تبدأ الأمور بشكل جيد عندما وفد الأمير وعائلته وخاصته إلى اسطنبول، فلم يبدي باشا المرفأ كثيراً من التعاون، كما أن المنزل الذي وضعه تحت تصرفهم في حي إبراهيم باشا بدا غير صالح للسكن، لينتقل بعد ذلك إلى مدينة بروسة.

* * *

محلة المحكمة، مدينة بروسة، 1853م.

خليل باشا: أهلاً بالأمير عبد القادر في مدينتنا «خداوندكار»، لقد ذاع صيتك في كل أرجاء دار الخلافة.. كيف وجدت المدينة؟

الأمير عبد القادر: أهلاً بكم يا أصحاب الدار... زينة البلاد تُقاس بزينة شعبها، وإذا كان الماء المغترَف من النهر مستساغاً وعذباً، فهذا يعني أنه آتٍ من نبع نقي.. لقد وجدت عمرانها يشبه مدينة تلمسان في الجزائر كثيراً، ولكن ما المقصود بما سُميت به المدينة؟

خليل باشا: آه «خداوندكار» مقصود بها «هدية الله»، وبإذن من السلطنة العظمى سيكون لك هدية من السلطان المعظَّم... راتب شهري يساعدك في نفقاتك.

الأمير عبد القادر: أحمد الله وأشكره على الكفاف، والشكر موصول لاهتمامكم، ولكن لدي ما يسد نفقاتي... يكفيني الكفالة والاستقبال الذي حظيت به في مدينتكم بعد أن تحررنا من الأسر، ويكفيني ذاك الجامع القريب من بيتي أُلقي فيه الدروس ويجتمع الناس من حولي، فإن ذلك يزن الدنيا وما فيها... وأعمل الآن على استكمال مكتبتي، وإن شاء الرحمن يأتي ذلك اليوم الذي أعود فيه إلى أحضان بلدي التي لا تفارق خاطري.

خليل باشا: هذا المال عربون محبة وتقدير أيها الأمير، ويجب أن نعرف كل خطواتك كما تعرف حكومة فرنسا خطواتك.

الأمير عبد القادر: لا تقلق... أعرف أن فرنسا تراقبني، المهم بما أنكم تُصرون، فإني سأنزل عند رغبتك، ونجعل هذا المال

لكفالة الفقراء، وسأنظم به حفل ختان لكل أطفال المدينة، فما رأيك؟

خليل باشا: المال مالك. . حدثوني عنك كثيراً وعن كرمك وأن الناس تجتمع عند باب بيتك فتُرزق وتتعلم، وها أنا الآن أرى بأم عيني، أشكرك. . . اتفقنا إذاً.

الأمير عبد القادر: الشكر لله تعالى هو الرزاق العليم، رافقتك السلامة.

* * *

بعدما قضى الأمير فترة من الزمن، تفرَّغ فيها للتدريس وأعمال الخير والكتابة. . . سمع الناس بنيَّته مغادرة بروسة بعد الزلزال الذي ضربها، فاجتمعوا حول بيته كالعادة طالبين مرافقته أينما حلَّ وارتحل، وذلك لما وجدوه من كرم وجود. ونبل في طباعه، ورفعة في قدره، وحسن استقبال لهم. . . فغادر وهو يقول:

أبى القلب أن ينسى المعاهد من بُروسا ... وحبي لها بين الجوانح قد أرسى

تباعدت عنها. . . ويح قلبي بعدها ... وخلَّفتها والقلب بها أمسى

وكانت الوجهة إلى دمشق كوطن نهائي بعدما أُخضع إلى مراقبة شديدة في دار الخلافة من الباب العالي والحكومة الفرنسية على حدٍّ سواء، خوفاً من تنامي الشعور القومي عند الناس من حوله.

* * *

الصالحية، دمشق، 1856م، عزت باشا رئيس العسكرية في دمشق.

عزت باشا: أهلاً بحضرة الأمير، حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً في بلدكم دمشق، آمل أن تكونوا قد ارتحتم من عناء السفر؟

الأمير عبد القادر: أهلاً بك، الحمد لله يا عالي المقام عزت باشا، لقد بلغت السعادة عندي عظيم مبلغها وأنا في أرض الشام المباركة، فمن أرض لبنان استقبلتني الوفود وأكرم مقام آل أرسلان، وها أنتم الآن وجموع الناس والأعيان ووفود المغاربة القاطنين قد نقلتني في موكب عظيم إلى دمشق.

عزت باشا: والله إنا استقبالنا لك ولأهلك وخاصتك كان تعبيراً يليق بمقامك، فأنت في أعيننا عظيم، وننظر إليك نظرة المناضل والفاتح الأمين، وعموم الناس بكل طوائفها تنتظر الانتهال من علمك وتدارس مسيرتك ومكارم أخلاقك، وينالها الكرم من جانبك، فتأسر بذلك النفوس بحبك.

الأمير عبد القادر: بوركتم لهذه الشهادة التي هي نعمة أحمد الله كثيراً عليها، وبوركت هذه الأرض التي تحوي ضريح المعلم والعارف بالله الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي.

عزت باشا: عظيم كلامك يا أمير، إذا أردت زيارة قبره سأرافقك.

الأمير عبد القادر: وهذا ما أفكر فيه مذ كنت في المسير إليكم، سأقصده للزيارة الآن، وأريد زيارة بيته أيضاً.

عزت باشا: لك ذلك.. تفضل يا أمير، والله لم نشهد أميراً عربياً منذ سنين يحل بديارنا، سأطلعك في الطريق على العديد من أمور البلاد وشؤون العباد، سوف نحتاج لمشورتك... فالأمور ليست على ما يرام.

* * *

بعدما تفرَّغ الأمير لأمور التأليف والتدريس في دمشق، ودعوة مريديه إلى الارتقاء الروحي على حساب الماديات، تحركت في نفسه الرغبة لزيارة بيت المقدس، فطاف على مدائنها وأقام عند أخيار أعيانها، ثم توجه إلى المسجد الأقصى المبارك... ومن جملة ما قال الأمير بعد أيام من التأمل في قُدسية المكان:

... الحمد لله الذي وهبني زيارة هذا البيت... هنا تنجلي بمشاهدته سائر الهموم وتزول عن القلب كل الغموم، وينشرح فيه الصدر، وتصفو به مرآة الفكر والروح..... واللهِ:

كأنها جنة حفَّ الجَمال بها فقام فيها مقام الزهر والثمر

التدريس والتأليف في دمشق

حي العمارة، دمشق القديمة، بيت الأمير عبد القادر رفقة ابنه الهاشمي.

الهاشمي: هل تعلم سيدي الحاج أن المقام بين جدران دمشق القديمة يمنحني شعوراً بعمق تاريخ هذا البلد وأصالته، وأشم رائحة التاريخ تنبعث من كل جوانبه.

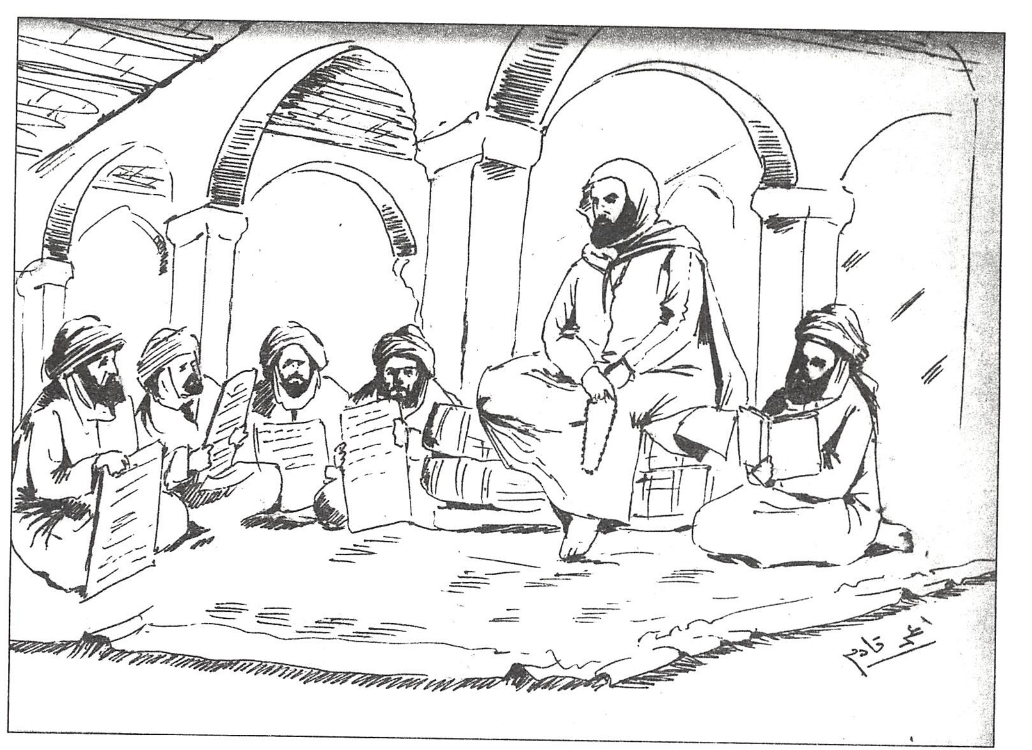
الأمير عبد القادر: أحسنت يا بني.. فعلاً هذه الأرض من خيرة المدائن والحضارات الضاربة في الأزل، وحملت على أرضها أيضاً قادة ومفكرين، ولنا في الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي أكبر دليل، فعند إقامتي في بيته ينتابني شعور آخر تسمو به الروح إلى درجة الكمال والصفاء.

الهاشمي: فعلاً يا أبي، الأمكنة لها تأثير كبير، وكما كنت دائماً تخبرنا عن الجزائر ومدنها وتاريخها، كنت أسافر معك بوجداني إلى هنالك، آمل العودة يوماً يا أبي.

الأمير عبد القادر: آه... الجزائر... كم اشتاق لها ولترابها وهوائها الممزوج برائحة البارود، سوف نعود يا بني، سوف نعود.... فالتاريخ يشفع لأبنائه المخلصين.

* * *

بقي اسم عبد القادر عالقاً في أذهان فرنسا الاستعمارية حتى بعد أن تخطَّى حدودها الجغرافية، فعمدت إلى مراقبة أحواله وجعلت الأعين تتابع أفعاله.



الأمير عبد القادر أثناء التدريس في دار الحديث الأشرفية «دمشق»

مكتب القنصل الفرنسي في دمشق. . . القنصل الفرنسي أوتري رفقة وزير الشؤون الخارجية الفرنسية الكونت والوسكي.

القنصل أوتري: سيدي الكونت، مرحباً بك في دمشق.

الكونت والوسكي: أهلاً مسيو أوتري، كيف هي الأحوال هذه الأيام؟

القنصل أوتري: أمور الباب العالي جيدة ومراقبة بإحكام. .

الكونت والوسكي: وماذا عن عبد القادر، أريد تقريراً عن تحركاته؟

القنصل أوتري: لم ألاحظ إلى حد الآن ما يخالف الطبع الحكيم، فهو يقضي وقته بين القراءة والتدريس وممارسة شعائره الدينية، وأحياناً زيارة بعض الأضرحة الخاصة بالأولياء والتصدق على الفقراء، ولا يداوم على زيارة الناس كثيراً، وبلغني أنه يقوم الآن بإعداد مؤلَّف صغير حول دور المرأة العربية في المجتمع وأمور مختلفة من الكتابة، ولكن. . .

الكونت والوسكي: ولكن ماذا؟

القنصل أوتري: لي من اليقين ما يشعرني أن تحفُّظه الخارجي هذا يختلف عن باطنه، فنحن بالنسبة له أعداء، ووطنه الجزائر تحت سيطرتنا، وقد يقوم بأي شيء داعم لبلده في الخفاء، وأخشى تجمُّع الناس من حوله، فقد أصبح أسطورة النضال والعلم هنا أيضاً.

الكونت والوسكي: مم. . . ماذا عن الدروس التي يلقيها في المسجد؟ ما طبيعتها؟ هل يتحدث في شؤون السياسة مثلاً؟

القنصل أوتري: لقد أعاد إحياء دروس جديدة تجمع ما بين الفلسفة وتاريخ الحضارات، ويربطها بالدين وسمو الروح والتصوف، فقد ازداد عدد مريديه، فهو يجيبهم عن كل سؤال.

الكونت والوسكي: ما أخشاه أن يُحضِّر لأمر ما ضدنا هنا، فالتنوير بالعلم سلاح أخر لا نريده، شدد الرقابة عليه وعلى أتباعه الذين جاؤوا معه.

* * *

بعد العودة من بيت المقدس وارتقائه في فضاء الفكر الصوفي، تجمع الأقدار بين من جمعتهم الدار قبل ثلاثة عقود، فقد حدث أن اجتمع الأمير عبد القادر والشيخ يوسف بدر الدين الذي زاره في بداية شبابه رفقة والده محي الدين، ولكن هذه المرة كان للأمير دور في رفع الغُبن عن الشيخ بدر الدين.

المدرسة الأشرفية «دار الحديث»، دمشق.

الشيخ يوسف بدر الدين: بارك الله فيك يا أمير. لقد جمعتنا الأيام مرة أخرى قبل أن تحين المنية يا ابن الحاج محي الدين.

وها قد رفعت ظلم ذلك السليط «ياركو» الذي استولى على الدار التابعة للمدرسة ومدَّ يده إلى الزاوية الغربية من المسجد، ووضع دنان الخمر وحرم التلاميذ من ولوج الدرس.

الأمير عبد القادر: أطال الله في عمرك يا شيخ ونفع تلاميذك من علمك، والحمد لله وحده، فما نحن إلا أسباب يجعلها الله تعالى تتحرك كيف يشاء، والفضل له كله.

الشيخ يوسف بدر الدين: بوركت يا بني، فالدال على الخير كفاعله، وأنت قد دللت على الخير وفعلته أيضاً. والله لقد أنقذت هذه البقعة المباركة ورفعت شكواي من زوايا الإهمال عند السلطان، وأنفقت من مالك فاشتريت الدار ووهبتها لنا كي تعود طاهرة نقية..

واللهِ كما تحدثت عنك البارحة في مجلسي: إنك كريم من نسل طه الكريم.

الأمير عبد القادر: لله الحمد بجميع المحامد، وأحرص ـ كما عاهدتك ـ على الإصغاء إليك... أبقاك رب العلا في نشر الحكمة دائماً، وسأردد ما قلت أيضاً يا شيخ يوسف.

ما خاب من جعل المختار واسطة ووصلة للذي يرجوه واقترحا

الشيخ يوسف بدر الدين: أحسنت يا بني.. من توكل على الله فهو حسبه.. هل تعلم؟ لقد صدقت رؤيا أبيك الحاج محي الدين، والآن أزهرت وأثمرت في دمشق، وإني أقول فيك:

أُهنّي دمشق الشام إذ ظفرت بمثلك الآن تغدو في ضواحيها

لما بدا وجهك الأبهى بساحتها ترادف الخير فيها مع نواحيها

* * *

تبدلت الأحوال مع مرور الأيام، ولم يبقَ لروح المحبة مكان يجمع أبناء الوطن الواحد، فظهر ما في القلوب والسرائر من ضغائن، وحدث ما لم يكن في الحسبان.. شرارة فتنة كبرى انطلقت من جبل لبنان لتصل إلى زواريب دمشق تحصد أرواح طائفة يُشار لها بالبنان.. فكادت المنطقة برمتها.. أن تكون في خبر كان.

فتنة جبل لبنان والشام

(الفتنة الكبرى) 1860م.

لانوس القائم بأعمال القنصلية في دمشق.

لانوس: عمت صباحاً أمير عبد القادر. . . أهلاً بك في هذا الوقت المبكر.

الأمير عبد القادر: أهلاً بك سيد لانوس. . نعم، للضرورة أحكام، جئتك في أمر بالغ الخطورة، وإن لم نتحرك جمعياً سوف تتفاقم الأمور في المنطقة كلها.

لانوس: تقصد ما يحدث في جبل لبنان.

الأمير عبد القادر: أجل فالعديد من البيوت والأديرة والكنائس أُحرقت ونُهبت، وهُجِّر من هُجِّر، وقُتل من قُتل، وإن بقيت الأمور على حالها امتد البلاء إلى هنا.

لانوس: فعلاً، لقد قمت ببعض الخطوات..

الأمير عبد القادر: النصارى هنا يتحدثون في الأندية والمجامع بما وقع من مجازر في زحلة ودير القمر وعموم جبل لبنان، وكثر القيل والقال وعمَّ الخوف نفوس الأبرياء.

لانوس: لقد تحركت الجيوش إلى مرفأ بيروت لحماية المسيحيين واستعادة الأمن والنظام هناك.

الأمير عبد القادر: لا أرى الأمر مناسباً لذلك، يا سيد لانوس في مثل هذه الحروب لا غالب ولا مغلوب، فالخسارة تعمُّ

الجميع. . في هذا القتال تغلب العصبية وتكثر المجازر التي تحصد الأبرياء وتحرق الأرض ودور العبادة معاً. . . أرى علينا أن نميل قبل ما عزمتم إليه إلى تحكيم العقل وتغليب روح المحبة والسعي للصلح ما بين الطرفين، على غرار ما يفعله البطرك بولس مسعد في سعيه لإيجاد تسوية مرضية للطرفين.

لانوس: كلامك معقول، ولكن كيف ذلك، وماذا عن هنا. . أقصد دمشق؟

الأمير عبد القادر: لقد راسلت مشايخ الدروز في جبل لبنان وسهول حوران. . . أخاطبهم بالتعقل، وسوء العاقبة من الدولة العلية لما يجهِّزون له، وأرشدتهم إلى ترك ما عوَّلوا عليه، لكن أفضى الحال إلى ما آل إليه الأمر الآن، وراسلت البارحة الجنرال بوفور، وسألتقي به حال وصوله. . أما إن تفاقمت الأمور وانتقلت الفتنة إلى دمشق فإني ألتزم بحماية كل المسيحيين، وإن اقتضى الأمر إلى جمع كل الجزائريين هنا للذود عنهم وعن ممتلكاتهم.

لانوس: أحيي فيك الشهامة، فهي ليست غريبة عنك يا أمير، لكن سوف أراسل باريس وأطلعهم على هواجسك. . لا تُقدِم على شيء من دون العودة إلينا.

الأمير عبد القادر: لم أتعود على أخذ الأوامر من أحد، ومن طبعي المشورة، سأفعل ما يمليه عليَّ ديني ومسيرة النضال التي أفتخر بها.

* * *

بدأت الفتنة في دمشق بعدما همَّ بعض أصحاب النفوس العليلة إلى تحريض الأطفال بتدنيس رموز دينية خاصة بمسيحيي البلد ورميها في أماكن قذرة، ولما بلغ الأمر الأمير عبد القادر علم أن العاقبة

وخيمة وذريعة لخراب البلاد والعباد، فتوجه إلى والي دمشق يحدِّثه بما آلت إليه النفوس من أمراض، ويحذِّره إن قويت بواعث الفتنة فلا صادَّ لها. . . لكن الأسوأ حدث. . .

* * *

قدور بن علال: سيدي الأمير.

الأمير عبد القادر: نعم يا شيخ قدور ما الأمر؟

قدور بن علال: ألسنة اللهب وصلت إلى دمشق، وطافت قبل ذلك باللاذقية، وهي الآن في محلة النصارى تحرق بيوت العزَّل من الأهالي، والكل يهرع هارباً لا يعرف إلى أين يتجه، وقد ارتفعت أصوات التحريض والقتل عليهم.

الأمير عبد القادر: لا إله إلا الله. . . إنا لله وإنا إليه راجعون، حدث ما كنت أخشاه، علينا أن نتحرك الآن. . أبلغ كل من معنا من الجزائريين أن يجهزوا الآن أمام ساحة البيت ومن ثم نتجه سوياً إلى هنالك.

الحي المسيحي في دمشق.

أصوات الصراخ وألسنة اللهب.

الأمير عبد القادر. . ينادي في ساحة الاعتداء: يا من تهاجمون، اعلموا أنكم لإخوانكم تقتلون، وأموالهم تسلبون، ونسلهم تقطعون ظلماً، وإن الله لا يرضى بذلك، فهم أبناء نبي الله عيسى بن مريم البتول. . . . لعن الله من أيقظ الفتنة. . . ارجعوا مما أنتم فيه من جهل وضلال. . . . توبوا إلى الله مما أنتم عليه. . . .

أصوات الصراخ. . . .

يا رب. . . أنت شاهد.

لقد أسمعت لو ناديت حياً   ولكن لا حياة لمن تنادي

الأمير عبد القادر: يا بن علال إن هذه الفئة الضالة من القتلة يمثِّلون أنفسهم ولا يمتثلون لأمر الله... ولا لدعواتي، أخبر الرجال أن يتوزعوا إلى فرق تجوب الكنائس والأقبية والمنازل التي طالتها ألسنة اللهب، وانقلوا كل نصراني إلى بيتي، فيظل فيه آمناً مستقراً... حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

قدور بن علال: أمرك مولاي الأمير.

* * *

جمع الأمير عبد القادر في بيته الكبير بكرمه والعظيم بحسن ضيافته والآمن بصيته ما يقارب الخمسة عشر ألف مسيحي، تولى جميع نفقاتهم وتوزيعهم على باقي البيوت المملوكة له وممن اقتدوا من الأهالي بفعله، آخذاً بكل الوسائل لإطفاء نار الفتنة، معتكفاً على سجادته في دهليز بيته.. لا يهجع من الليل إلا قليلاً.

* * *

قدور بن علال: السلام على مولاي الأمير.

الأمير عبد القادر: وعليك السلام والإكرام، ما وراءك يا شيخ قدور؟

قدور بن علال: السفهاء الذين انطلقوا من باب الحديد والصالحية هذا الصباح إلى هنا؛ لم يكتفوا بأن قذف الله في قلوبهم الرعب وفروا حين رأوك.. بل بلغني أنهم عقدوا العزم هذه الليلة للإغارة على بيوتك وكل بيوت الأهالي الذين اقتدوا بك في إيواء النصارى.

الأمير عبد القادر: لا حول ولا قوة إلا بالله.. والله ما يقومون به لأشد ما في البلاء، سفك الدماء بغير حقها يدعو إلى حلول النقمة وزوال النعمة... يا سي قدور، اجمع الأشدّاء من رجالنا وناولهم البنادق، وليحصّنوا أطراف البيوت من كل جوانبها ويحموا من بداخلها من دون أن تُزهق قطرة دم.



الأمير عبد القادر يساعد أهالي حارة النصارى في دمشق القديمة

قدور بن علال: أمرك مولاي الأمير، ولكن سأبقى برفقتك هنا سيدي.

الأمير عبد القادر: لا يا قدور، فلنا في دروب القتال أشواط، غير أني أتحاشى هذا قدر المستطاع. . . .

سلوا تخبركم عنا فرنسا ويصدق إن حكت منها المقال

فكم لي فيهم من يوم حربٍ به افتخر الزمان ولا يزال

قدور بن علال: المعذرة مولاي الأمير.

* * *

بعدما هدأت الأمور في الساحات والميادين واقتُصَّ من المذنبين والمقصرين، بعث الجنرال بوفور برسوله من بيروت للأمير عبد القادر شاكراً له عظيم صنيعه، ومبلغاً إياه ضرورة مغادرة الصالحية في دمشق، ذلك لأنه سيعمد إلى قصفها؛ بعد الخلاف الذي نشب بينه وبين المندوب العثماني فؤاد باشا المكلف الجديد بشؤون حفظ أمنها.

لبنان. . . البقاع، قرية قب إلياس، اجتماع الأمير عبد القادر والجنرال بوفور 1860م.

الأمير عبد القادر: السلام على حضرة الجنرال.

الجنرال بوفور: أهلاً بمخلِّص الأهالي الأمين، ما قمت به يستحق الثناء الكبير، خاصة أن رجالك الشجعان تكفلوا أيضاً بنقلهم إلى بيروت وتأمين الطريق لهم.

الأمير عبد القادر: لم أقم إلا بواجبي الذي يمليه عليَّ الدين والإنسانية.

الجنرال بوفور: لقد بلغني أن صحيفة قد كتبت عنك، أنه كان مروراً عظيماً لحفيد النبي محمد محاطاً بالقساوسة والراهبات

والأطفال الذين انتشلتهم من الموت رفقة جنودك الجزائريين القدامى الذين حموهم من القَتَلة.

الأمير عبد القادر: هم قَتَلة فعلاً، لكن يمثّلون أنفسهم، وأشكر الله على ما جرى به قضاؤه، والحمد لله فقد سلَّمت بعض الأهالي من سفك دمها عبثاً وظلماً، وهذا كله جاء بفضله تعالى، وإن سعينا لإطفاء نار الفتنة لا ينبع مطلقاً من اهتمام بمصالح سياسية لأي طرف، إنما هو ما أمرنا الله به من الوقوف مع المستضعفين ورفع الضيم عنهم، وتغيير للمنكر، وهو منهاج سماحة ديننا الإسلام، وما جئتك طالباً للشكر أو الثناء، فقد أتيتك في أمر آخر أرى أنه باب إن فُتح تتداعى له سائر البلاد بالشقاء والغبن.

الجنرال بوفور: عمَّ تتكلم سيد عبد القادر؟

الأمير عبد القادر: اقصد بحديثي ما عزمتم عليه من نيَّة في خاطركم لقصف دمشق.. فوالله إنه أمر محزن وخراب قادم، أسألك أن تعدل عن الأمر لما له من سوء العاقبة، واعلم أن محبة الله تكمن في توظيف ما أنعمه علينا من ميزة العقل، فيجب أن يغلب ما في باطن الإنسان من دعائم الخير لا الشرور.

الجنرال بوفور: حسناً، أنا أثق بتقديراتك، ولطالما كانت صائبة ومحل الاهتمام، وسوف أراجع قيادتي في الأمر.

❊ ❊ ❊

استطاع الأمير عبد القادر أن يثني الجنرال عن عزمه قصف دمشق، وبذلك كُتب لها الحفظ والسلامة، وأسرَّها في نفسه وبين خاصته، وجعلها خالصة لوجه الله تعالى، وانحنت ملوك العالم وقياصرتها لموقف الأمير في الإقدام على حماية مسيحيي المشرق وتأمين الآمان لهم، فتقاطرت البرقيات والنياشين والأوسمة التي لم يُعِر لها الأمير أي اهتمام.

آخر أيام الصالحية

حي العمارة، دمشق القديمة، بيت الأمير عبد القادر.

بن سالم وهو قادم..: كم هي الدنيا صغيرة تجمع الأحبة حيناً وتفرقهم حيناً آخر، وها قد جمعتنا مرة أخرى سيدي الأمير، ولكن بعيداً عن وطننا الجزائر.... السلام عليكم مولاي الأمير..

الأمير عبد القادر: وعليك السلام، أهلاً بالقائد الهُمام وفارس جبال جرجرة، كيف حالك؟ واللهِ لك ولكل الأحبة من الشوق العظيم ما لا يقدَّر.

بن سالم: الحمد لله، لقد جئتك مسرعاً حال وصولي إلى بلاد الشام، واللهِ يا سيدي الحاج بمجرد أن رأيتك الآن تاقت نفسي إلى أن أمتطي فرسي وأقاتل مجاهداً في سبيل الله كما كنا بالأمس معك، كنت دائماً مُلهِم روح النضال بيننا ولا زلت.

الأمير عبد القادر: هو التاريخ هكذا يحمل العديد من الأبواب، فهنالك أبواب إن فتحتها انبعث السرور والغبطة منها، وأخرى لما فيها من الغدر تُضَيق على صدرك وتقسم ظهرك حين تتذكرها... الحمد لله على كل حال.

بن سالم: سيدي الأمير ما جرى كان مقدَّراً، ولو اجتمعت القبائل على هدف واحد لطردنا الغزاة وكسرنا شوكتهم، ولكن اعلم يا سيدي الحاج أن أرض الجزائر الآن تغلي بعديد المقاومات، ولم يهنأ المستعمر لحظة واحدة... فروحك تقود المناضلين.

الأمير عبد القادر: والله يفرحني هذا الكلام كثيراً، وأريدك أن تخبرني عن كل شيء حدث أمامك، وكيف السبيل لدعم ما يحدث هنالك.

بن سالم: في جعبتي من القول الكثير، والذي قد لا ينتهي، فغيابك عنا طال، لقاؤك الآن عظيم بعد تعب الانتظار.

الأمير عبد القادر: بوركت يا بن سالم، أفكر أحياناً وأقول: إن مشيئة الله لا يُدركها العقل في حينها إلا بعد التدبر في ما حدث، فسجني في فرنسا أعطاني فرصة التحاور مع أبناء الدين المسيحي وطرح أسس سماحة الإسلام وأعمدة التواصل والتحاور بالتي هي أحسن، وعند إقامتي في بروسة شاهدت أن الكادحين والفقراء هم نفسهم في أزقة مدينة بو وفي بوادي سهل غريس وحواضر وهران... فهم ضعفاء يجب أن نقتسم القوت معهم، وقد جعلهم الله في طريقي، أما طلاب العلم لا يختلفون في أي مكان، تجدهم متعطشون للمعرفة ويرتحلون معك بين صفحات الكتب وأخبار الأولين، وما حدث من فتنة في هذه البلاد، فأشكر الله أن جعلني سبباً من الأسباب لإطفائها...

بن سالم: الحمد لله.. كل الناس تتحدث عنك سيدي.

الأمير عبد القادر: على الناس أن تتمسك بسبل الخير وتمتثل بها في كل الأمور... أما عن القتال والمقاومة في أرضنا الجزائر ضد المستعمر الذي لا تتوقف أطماعه، وسعيي للمِّ الشمل وتأسيس الدولة فكان خالصاً لله تعالى، وها أنت تقول أنه أصبح منهاجاً وممراً سليماً لطرد الغزاة وتحرير الوطن، وهذا الحديث يريح البال ويطيّب الخاطر.

بن سالم: أحسنت مولاي الأمير بما قلت، والله اسمك أصبح مضرب الأمثال في الرفعة والنبل والنضال.

الأمير عبد القادر: هذا من كرم الله ومن لطفك يا سي بن سالم.. هم وحدهم الرجال والمخلصين الشرفاء إن اهتدوا وضحّوا لأجل الأوطان، فإنهم يشقون البحر بأفعالهم، ووالله:

لم أرَ أعظم من نعمةٍ مُنحت ولم تك لي في حساب
سأشكرها شكر وقت السرور وأذكرها ذكر وقت الشباب

* * *

النهاية...

بيت الأمير عبد القادر، 1883م.

الابنة فاطمية: أماه.. لم أعهد أن أرى والدي الحاج هكذا شاحباً وقد أعياه المسير إلى البيت ويسعل بهذه الشدة.

لآلة خيرة: لا تقلقي بنيتي، يمكن أن يكون قد أتعبه السفر، وقد تنقَّل كثيراً بين حواضر دمشق وجوامعها في الأيام التي مضت.

الابنة فاطمية: فعلاً.... حتى قساوة البرد هذا العام شديدة، فقد أهلكت تلك الزهور في فناء البيت.

لآلة خيرة: يااااه... نسيت... لقد أنساني الشيطان اللعين إبريق إكليل الجبل، وضعته جانباً لأُعدّه لوالدك الحاج... تأخرت كثيراً في إعداده له.

الابنة فاطمية: أتودين المساعدة يا أماه؟

لآلة خيرة: لا، لا، ابقي حيث أنت، سوف أُعدُّه بنفسي.

* * *

لم تكن تعلم رفيقة الدرب وقرة العين لآلة خيرة.. أن ناصر الدين ومُذل الغزاة المستعمرين وداعم المستضعفين عبد القادر بن محي الدين قد فارق الحياة بجوار كتبه في حجرته... فأعدَّت له

الدواء بنية الشفاء، ودخلت عليه مستأذنة في استحياء تخشى أن تكون قد تأخرت عليه. . . لتجد الروح قد صعدت إلى السماء وفارقت جسد الثائر لحظة الدعاء.

الله أعلم أن هذا لم يكن مني	على الأمد الطويل دليلا
كلا وإن منيَّتي لقريبة	مني وأصبح في التراب جديلا
ورضا الإله هو المنى ويكون من	بعدي انتفاع الخلق ثَمَّ طويلا

* * *

هكذا قال الأمير عبد القادر مخاطباً المنيَّة. . . فرحل الجسد ولم ينقطع نسل الثورة في الجزائر، ولم يحِد عنها أحد، وقادتها أسماء تعاقبت، وأجيالها بقيت في الذاكرة إلى الأبد. . . استلهمت من روحه فنَّ المقاومة فكان النضال مدد. . . مِن الشيخ المقراني، وثورة الزعاطشة، إلى لآلة فاطمة نسومر، وثورة الشيخ بوعمامة، إلى زيغود يوسف، والسي الحواس، إلى العربي بن مهيدي، وحسيبة بن بوعلي، إلى جميلة بوحيرد، وعلي لابوانت، إلى عموم الشعب الجزائري الذين عاهدوا الله على التحرير بقوة السواعد والزنود. . فرسموا ملحمة ثورية. . أبطالها جنود في مواكب الشهداء. . تخطّوا الملايين من أجل حرية البلد الحبيب، الجزائر.

النهاية

المحتوى

رقم: 611 - 15